الفصل الأول
حياة ابن حزم وجهوده السياسية

المبحث الأول : أوضاع الأندلس السياسية وأثرها على فكر ابن حزم :

المبحث الثانى : أصل ابن حزم ونشأته:

المبحث الثالث : تكوين ابنُ حزم العلمى ومصادر فكره:

المبحث الرابع : القيمة العلمية لمصنفات ابن حزم:

المبحث الخامس : ابن حزم وجهوده السياسة:

المبحث السادس : إحراق كتبه ووفاته

المبحث الأول

أوضاع الأندلس السياسية وأثرها على فكر ابن حزم :

امتدت حياة ابن حزم لتشمل فترتين من تاريخ الأندلس هما :

1- فترة ضعف الخلافة التى تبدأ بتولى هشام المؤيد (1) الخلافة عام366هـ/976م ، وتنتهي بسقوطها عام422هـ/1030م .

2- عصر ملوك الطوائف ، والذى تفككت فيه الأندلس إلى ولايات وإمارات متعددة ، عقب انفراط عقد الخلافة الأموية بالأندلس .

ونظرا لصغر سن هشام وضعفه فقد تلاشت شخصيته أمام شخصية حاجبه المنصور بن أبى عامر، الذى نجح فى السيطرة على مقاليد الأمور، والقضاء على خصومه ومنافسيه، حتى أصبح الآمر الناهى بحيث لم يعد لهشام من الخلافة سوى الاسم (2).

وقد كان لهذا أثره على فكر ابن حزم السياسى حيث اشترط البلوغ والقوة للخليفة ، فضلا عن تطبيق نظام الحكم المركزى ؛ ليتسنى له مباشرة كل صغيرة وكبيرة فى الدولة ، وقد تمكن المنصور بفضل الجيش البربرى الذى كونه أن يوقف كل تقدم للنصارى جنوبى نهر دويره ، وأن يستولى على مدن ليون وشنت ياقب وبرشلونة ، ورأى النصارى على يديه من الخوف والهلع ما جعل أحد الرهبان يتنفس الصعداء لوفاته ويدون فى حولياته " فى سنة1002م مات المنصور ودفن فى الجحيم " (3) .

---

(1) هو ابن الحكم المستنصر تولى الخلافة وهو ابن عشرة أعوام وأشهر ، أمه أم ولد تسمى صبح ، خلع من الخلافة سنة 399هـ/ 1008م لمزيد من التفاصيل أنظر ابن حزم ، ذكر أوقات الأمراء ، رسائل ابن حزم 196/2

(2) محمد بن عبدالله بن الآبار: الحلة السيراء ، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف ، القاهرة ، ط2،1405 هـ /1985م، 1/269،268 .

(3) Dozy , Recherchés sur L.Histoire et la Litterature de L.Espagne pendant le moyen age, parise-leyde, troisieme edition, 1881,T.1,p.193 ، وانظر آنخل جونثالث بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسى ، ص11،12 ؛ ستانلى لين بول ، العرب فى أسبانيا، ترجمة على الجارم، دار المعارف بمصر، ط9،1947م، ص152 .

وبعد وفاة المنصور خلفه على حجابة الأندلس ابنه عبدالملك المظفر الذى سار سيرة أبيه طوال حكمه ، وبعد وفاته سنة398هـ/1007م خلفه أخوه عبدالرحمن شنجول ، وكان دون أبيه وأخيه كفاية فطمحت نفسه للإمامة العظمى ، وحمل هشام المؤيد على أن يعهد له بالخلافة من بعده ، مما أثار ثائرة الأمويين والمضريين عليه ، وكانت فتنة خُلِع فيها هشام وسجن ، وقتل عبدالرحمن سنة399هـ/1008م.

تولى الخلافة محمد بن هشام المهدى بعد هشام المؤيد [1] ، وبقى كذلك إلى أن قام عليه هشام بن سليمان بن الناصر [2] سنة399هـ/1008م لكنه هزم أمام المهدى ، ثم اجتمع البربر بعد ذلك على سليمان بن الحكم [3] وقام الصراع بينه وبين المهدى ، ومن ثم خرج سليمان عن قرطبةCordoba سنة400هـ/1009م ، وتحالف مع النصارى على محاربة المهدى ، ثم عاد فالتقوا جميعا فى معركة قنتيش بالوادى الكبير بقرطبة ، وكانت الدائرة فيها على أهل قرطبة حيث قتل منهم ما يربو على عشرين ألفا[4] .

كان لهذه المعركة أبعاد هامة ، إذ قضت على خلافة المهدى وعلى كل أمل فى إعادة الخلافة الأموية إلى ما كانت عليه من قوة ، كما ترتب عليها انقسام عسكر الأندلسيين إلى قسمين متضادين؛ البربر من ناحية والأندلسيين من ناحية أخرى . فضلا عن أنها أشعرت حكام النواحى أن لا أمل فى إعادة سلطان مركزى ، فبدأ كل منهم يستقل بناحيته[5] .

---

(1) ولد سنة 366هـ/976م ، تولى الخلافة سنة 399هـ/1008م ، وكانت مدة ولايته ستة عشر شهرا ، حيث قتل على يد العبيد مع واضح الصقلبى سنة 400هـ/1009م أنظر ابن حزم ، ذكر أوقات الأمراء ، رسائل 2/197،196

(2) أحد أحفاد عبدالرحمن الناصر ، قام بالثورة على المهدى ، مع البربر ، إلا أنه هزم ووقع فى الأسر فقتله الهدى أنظر نفس المصدر السابق والمكان والصفحتين

(3) قدمه البربر للخلافة بعد قتل عمه هشام بن سليمان ، وكان من أهل العلم والفهم ، قتل سنة 407هـ/1016م على يد على بن حمود لمزيد من التفاصيل أنظر ابن الأبار ، الحلة السيراء ، 2/5-12

(4)ا بن حزم ، ذكر أوقات الأمراء وأيامهم ، رسائل ،2/197،196.

(5) حسين مؤنس ، تحقيق الحلة السيراء ، 2/6 هامش (2) .

دخل سليمان قصر قرطبة بعد المعركة وبويع له بالخلافة فى ربيع الاول سنة 400هـ/1009م ، واستقر المهدى بعد هزيمته بطليطلة toledo واستعان بالنصارى هو الآخر وأقبل بهم إلى قرطبة ، فخرج إليه سليمان فهزمه المهدى ، ودخل قرطبة مستوليا على الخلافة . ولم يلبث كذلك إلى أن وثب عليه العبيد العامريون مع واضح الصقلبى [1] فقتلوه ، وصرفوا هشاما المؤيد ، وفى الوقت نفسه كان سليمان بن الحكم يجوس الأندلس برجاله ومن معهم من البربر فينهبون ويقتلون إلى أن دخلوا معه قرطبة عنوة فى شوال سنة 403هـ/1012م . فكانت الفتنة البربرية التي استباح فيها البربر قرطبة وراح ضحيتها أناس كثيرون [2] وكان ابن حزم قد عاش هذه الفتن وأصابه هو وأسرته ما أصاب الناس من الملاحقة والاعتقال [3]، وانعكس ذلك علي كتاباته التي اتسمت بالحدة والحزن ، كما فطن ابن حزم من خلال معايشته لهذه الأحداث أن البربر الذين أتى بهم المنصور بن أبى عامر وكون بهم الجيش ، كانوا السبب فيما أصاب الأندلس من فتن واضطرابات ؛ ومن ثم فالواجب عليه أن يعيد القوة للخلافة الأموية من خلال مساندته لبعض رجالها الصالحين الأقوياء أمثال المرتضى والمستظهر كما سياتى بعد قليل.

ثار علي بن حمود [4]في سنة 407هـ / 1016 م علي سليمان بن الحكم وقتله بيده ، وتولي الخلافة مدعيا أن هشام المؤيد عهد إليه بالأمر ليكتسب شرعية أموية ، وذلك لأن الأندلسيين ما كانوا يرضون أن يتولي أمورهم غير الأمويين ، وقد اختلف عليه العبيد الذين بايعوه وقدموا عبد الرحمن بن محمد المرتضي. وزحفوا إلى غرناطة GRANADA التي تغلب البربر عليها . وكان ابن حزم في صفوف المشاركين لمؤازرة المرتضي. ، ولكن العبيد ندموا علي

(1) كان محسوبا للخلافة وعاملا فى قصورها .

(2) ابن حزم ، نفس المصدر السابق ، رسائل 197/2 ؛ وانظر : ابن الآبار ، نفس المصدر السابق ، 7/2 .

(3) ابن حزم ، طوق الحمامة ، تحقيق الطاهرمكي ، دار الهلال ، القاهرة ، 1412 هـ /1992 م ، ص 245،246 .

(4) تولى الخلافة مدعيا أن هشام المؤيد عهد بها إليه ، وظل خليفة عامين إلا شهرين ، إلى أن قتله صقالبة له فى الحمام سنة 408هـ/1017م لمزيد من التفاصيل أنظر ابن حزم ، ذكر أوقات الأمراء ، رسائل 199/2

إقامته لما رأوا من صرامته وخافوا عواقب تمكنه وقدرته فدسوا عليه من قتله عام 408 هـ / 1017 م، ثم انقلب صقالبة علي بن حمود عليه وقتلوه في نفس العام ، وبعده تولي أخوه القاسم بن حمود (1) ، الذى أمن الناس في عهده ، وظل في الخلافة حتي عام 412 هـ/ 1021 م ، فثار عليه ابن أخيه يحيي بن علي بمالقه MALAGA وزحف بعساكره إلى قرطبه فدخلها عام 413 هـ /1022 م وتسمي بالخلافة ثم هرب عنها إلى مالقة عام 414 هـ/ 1023 م (2) .

ومما سبق يتضح أن دخول بني حمود العلويين الأندلس كان أحد الأسباب التي زادت من الفرقة والنزاع بالأندلس ومن ثم فقد لقوا معارضة شديدة من قبل ابن حزم.

بعد خروج يحيى بن على من قرطبة اتفق رأى أهلها على رد الأمر إلى بنى أمية فاختاروا ثلاثة منهم وهم : عبدالرحمن بن هشام بن عبدالجبار ، وسليمان بن المرتضى، ومحمد بن عبدالرحمن بن هشام ، وانتهى الأمر بمبايعة الأول بالخلافة فى رمضان سنة 414هـ/1023م . وتلقب بالمستظهر (3) . وبالرغم من قصر مدة حكمه فإن ابن حزم ترك عليه أثرا فى بعض النواحى الساسية من خلال صداقتهما قبل توليه الخلافة ، حيث عمل المستظهر برأى ابن حزم فى اختيار الوزراء من خيرة العلماء والأدباء .

---

(1) تولى الخلافة بعد مقتل أخيه على ، وكان أسن منه بعشر سنوات ، تلقب بالمأمون ، وقتل خنقا سنة 431هـ/1039 أنظر نفس المصدر السابق ، ص200

(2) ابن حزم ، ذكر أوقات الأمراء ، رسائل 2/198 – 201 ، ويحيى بن على من نسل الحسن بن على بن أبى طالب تولى الخلافة بقرطبة سنة 413هـ/1022م ، قتل سنة 427هـ/1035م أنظر نفس المصدر ، ص201 ، ومالقة مملكة بين اشبيلية وغرناطة علي بحر الزقاق لمزيد من التفاصيل انظر ، موسي بن محمد بن سعيد وآخرين ، المغرب في حلي المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط2 ، 1964 م ، 1/422-424 .

(3) ولد سنة 392هـ/1001م ، وتولى الخلافة وهو ابن اثنتان وعشرون عاما ، وهو أحد أحفاد عبدالرحمن الناصر ، كان فى غاية الأدب والبلاغة ورقة النفس ، قتل بعد أسابيع من تولى الخلافة أنظر ابن الأبار ، الحلة السيراء ، 2/12-17

وبالرغم من صلاح المستظهر وقوة شكيمته فإن الأمر لم يدم له طويلا ،إذ سرعان ما خرج عليه محمد بن عبدالملك المستكفى سنة 414هـ /1023م وتولى الخلافة ، ولم يكنله من الأمر شيء وإنما أرسله الله محنة على أهل الأندلس ، فقد خنق ابن عمه ابن عبدالعزيز العراقى ، وسجن ابن حزم وابن عمه (أبا المغيرة) ، وهدم قصور عبدالرحمن الناصر [1]

ونظرا لما أظهره المستكفى من فسق وجور فقد خرج عليه أهل قرطبة وخلعوه سنة 416هـ/1025م وتولى بعده يحيى بن على الحمودى مرة ثانية وظل كذلك حتى سنة 417هـ/1026م ، ثم قطعت دعوته من قرطبة فاجتمع رأى أهلها على رد الأمر إلى بنى أمية فقدموا هشام بن محمد المعتمد بالله وبايعوه بالخلافة سنة 418هـ/1027م ، ولكنه كان أضعف من أن يحقق الآمال المعقودة عليه ؛ ومن ثم فقد خرجت عليه فرقة من الجند سنة 422هـ/1030م وخلعوه ، وسقطت الخلافة بذلك وانقطعت الدولة الأموية من يومئذ بالأندلس [2] .

نتج عن ذلك أن انقسمت الأندلس إلى دويلات صغيرة متصارعة بلغ عددها ثلاث وعشرين إمارة ، انضوت تحت لواء ثلاثة أحزاب عمل كل منها على بسط سلطانه على الاندلس ؛ وهم : الحزب الأول ويمثله أهل الأندلس وكان من زعمائهم بنو عباد اللخميون بأشبيلية ، وبنو جهور بقرطبة ، وبنو خزرون فى أركش ، وبنو صمادح بالمرية ، وبنو هود

(1) ابن سعيد ، نفس المصدر السابق ، 1/55،54. والمستكفى ولد سنة 366هـ/976م وتولى الخلافة بعد قتل المستظهر ، وهو ابن ثمان وأربعين سنة قتل مسموما بمدينة سالم الأندلسية أنظر ابن حزم ، ذكر أوقات الأمراء ، رسائل 2/203،202 ، وأبو المغيرة هو عبدالوهاب بن أحمد بن عبدالرحمن بن سعيد بن حزم ، كان أديبا مشهورا ، وألف عدة تواليف توفى بعسكر ابن ذى النون صاحب طليطلة سنة 438هـ/1046م . أنظر : خلف بن بشكوال، الصلة ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، دار الكتاب المصرى واللبناني ، القاهرة – بيروت، ط1410،11هـ/1989، 2/555 ترجمة 819.

(2) ابن حزم ، ذكر أوقات الأمراء ، رسائل 2/202، 203 ؛ وانظر رينهرت دوزى ، المسلمون فى الأندلس ، ترجمة حسن حبشى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1994م ، 2/215 –224. وهشام المعتمد بالله ولد سنة 364هـ/974م ، وكان ضعيفا مترددا ، خلع من الخلافة ، واعتقل ن ثم هرب إلى لاردة ، ومات بها سنة 427هـ/1035م أنظر : ابن حزم ، ذكر أوقات الأمراء ، رسائل 2/204،203

بسرقسطة ، وبنو برزال فى قرمونة ، وبنو نوح فى مورور ، أما الحزب الثانى فيمثله البربر حديثو العهد بالأندلس ومن زعمائه بنو زيرى فى غرناطة ، وبنو حمود فى مالقة ، أما الحزب الثالث فيمثله كبار الصقالبة الذين استقلوا بشرق الأندلس (1) .

لقد حاول كل فريق من هذه الأحزاب أن يحيط ملكه بسياج شرعى يستمد منه سلطانه بإقامة خليفة بجواره ، فبنو عباد أقاموا رجلا يدعى خلف الحصرى خليفة وكان شديد الشبه بهشام المؤيد ، وادعوا أنه هو (2)، وبنو حمود دعوا لأنفسهم بالخلافة معتمدين على أصلهم العلوى الشريف ، أما الصقالبة فقد حاول بعضهم وهو مجاهد العامرى إحياء الخلافة فى مملكته باستقدام رجل أموى من أشراف قرطبة وأثبت اسمه فى سكته وأعلامه ولقبه بالمنتصر بالله (3) ، ومن ملوك الطوائف من خطب للخلفاء العباسيين (4).

وهكذا فقد تعددت الخلافة الأندلسية بتعدد ملوك الطوائف واصطدمت مصالحها لقرب المسافات بينها ، وأصبحت مظهرا من مظاهر الفوضي السياسية وعاملا من عوامل

---

(1) دوزى ، السابق ، 3/216-224 ؛ وانظر أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية ، (د.ت) ، ص275،276، وأركش كورة كثيرة الأرزاق ، وهى إحدى مدن إشبيلية أنظر ابن سعيد ، المغرب ، 1/315 ، وسر قسطة مدينة تقع شرق قرطبة تعرف بالمدينة البيضاء ، والمرية إحدى مدن كورة البيرة وهى باب الشرق ومفتاح التجارة ، ومرسى للسفن وما يقوم به الأسطول ، وقرمونة مدينة تقع إلى الشرق من إشبيلية والغرب من قرطبة وبينها وبين قرطبة خمسة وستون ميلا ، ومورور مدينة متصلة بقرمونة وهى من مدن قرطبة وبينهما ستون ميلا. لمزيد من التفاصيل أنظر محمد بن أيوب بن غالب ، فرحة الأنفس ، تحقيق لطفى عبدالبديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، جامعة الدول العربية ، ربيع أول 1375هـ / نوفمبر 1955م ، مجلد 1 ج2 ص287 ، 288 ، 283 ، 284 ،292 ، 293.

(2) ابن حزم ، نقط العروس ، رسائل ،2/98،97.

(3) أحمد مختار العبادى ، مرجع سابق ، ص278. ومجاهد هو يوسف ين على أحد فحول الموالى العامريين ، كان المنصور بن أبى عامر قد رباه وعلمه مع مواليه القرآن والحديث والعربية ، فكان مجيدا فى ذلك ، أصله من الروم . أنظر ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات ، بيروت ، 1391هـ/1971م ، 4/164.

(4) احمد بن محمد المقري ، نفح الطيب ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ط1 ، 1367 هـ/1949 م ، 1/198.

الفتنة، الأمر الذي دعا ابن حزم الي التنديد بذلك في نوازله ورسائلهفأفتى بعدم جواز تولى الخلافة لأكثر من واحد ، محتجا بقول الرسول (ص) (إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما)[1] ، ثم تعدى حد الفتوى إلى التنديد فوصف تعددية الخلافة بأسلوب ساخر قائلا : " فضيحة لم يقع فى العالم إلى يومنا مثلها أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام فى مثلها ، كلهم يتسمى بإمرة المؤمنين ، ويخطب لهم بها فى زمن واحد ... " [2] ، وقوله حينما تصالح كل من يحيى بن على بن حمود بقرطبة وعمه القاسم بإشبيلية : " خليفتان تصالحا وهذا أمر لم يسمع فى الدنيا بأشنع منه ولا بأدل على إدبار الأمور"[3]، وترجع معارضة ابن حزم للتعددية إلى الأسباب الآتية :-

أولا : نصوص السنة التى تعارض ذلك ، وفى مقدمته حض الرسول (ص) بقتل الخليفة الثانى حين الاجتماع على خليفة ، وابن حزم كفقيه ظاهرى لم يكن ليدع أحاديث الرسول إلى غيرها.

ثانيا : الفرقة التى شهدتها الأندلس فى عصره من جراء ادعاء أكثر من واحد أحقيته بالخلافة ، ومحاربة كل منهما للآخر طمعا فى ممتلكاته ، مما كان له أكبر الأثر فى إنهاك قوة الأندلس واضطراب أحوالها .

ثالثا : أن الواقع التاريخى أثبت خطأ رؤية الفقهاء ممن أجازوا التعددية بشرط البعد الجغرافى منعا من الاصطدام . وليس أدل على ذلك من نشوب الحرب والصراع بين العباسيين ببغداد ، والأمويين بالأندلس من ناحية ، والعباسيين والفاطميين من ناحية أخرى؛

(1) لمزيد من التفاصيل أنظر المحلى ، 66/1 ، 423/8 ؛ الفصل ، 4،5/3 ؛ والحديث رواه مسلم فى كتاب الإمارة من صحيحه .

(2) أنظر : نقط العروس ، رسائل 97،98/2 .

(3) نفس المصدر ، ص92 .

ومحاولة كل طرف السيطرة على ممتلكات الآخر ، والتوسع على حسابه ، بالرغم من البعد الجغرافى الكبير بينهم [1] .

رابعا : أن أول من أجاز التعددية هو محمد بن كرام السجستانى زعيم الكرامية أحد فرق المرجئة ، وصاحبه أبوالصباح السمرقندى ثم أتباعهما [2] ، وابن حزم كان من أشد فقهاء الأندلس معارضة للفرق الإسلامية .

خامسا : أن الإجماع قد انعقد بين الصحابة على وحدة الخلافة ، ومن بعدهم أهل السنة والخوارج والشيعة والمعتزلة ومعظم المرجئة [3] ؛ وإجماع الصحابة عند ابن حزم أصل ثالث بعد القرآن والسنة. ثم زاد عليه إجماع أهل السنة ومعظم الفرق الإسلامية .

وبالرغم من الجهود السابقة التى بذلها ابن حزم بخصوص هذا الشأن ، فإن تأثيره لم يتعد الأثر الفكرى ، حيث نرى جماعة من أصحابه يراسلونه يستوثقون منه عن رأيه بشأن التعددية التى شهدتها الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية، فأجابهم : بأن ذلك فتنة سوء أهلكت الأديان ، وأن كل حاكم لمدينة من مدن الأندلس بعد سقوط الخلافة فإنه محارب لله ورسوله وساع فى الأرض بالفساد ، لما وقع على أيديهم من الفرقة والاضطراب [4] ، وبعد وفاته نجد الإمام محمد بن أحمد الأنصارى المفسر المشهور بالقرطبى يتبنى رأيه فى رفض

---

(1) أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص193-209 ؛ وانظر عبدالمنعم ماجد ، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها فى مصر ، دار الفكر ، القاهرة ، ط4 ، 1414هـ/1994م ، ص141-165 ؛ اتفق أهل السنة وجميع المرجئة والخوارج والمعتزلة والشيعة على وحدة الخلافة وعدم جواز إمامين فى وقت واحد ، وشذ قوم من أهل السنة وبعضا من الفرق الإسلامية فجوزوه ، وانتقد الماوردى من الشافعية ذلك لمزيد من التفاصيل أنظر ابن حزم ، الفصل ، 3/3-6 ؛ الماوردى ، الأحكام ، ص10 .

(2) البغدادى ، الفرق ، ص195 ؛ وانظر : ابن حزم ، الفصل ، 3/ 4 . وابن كرام ولد فى سجستان ، سجنه طاهر بن عبدالله بنيسابور ، وخرج منها إلى القدس فمات بها سنة 255هـ/868م . أنظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ، 11/27،28. وأبوالصباح لم أعثر له على ترجمة .

(3)ابن حزم ، الفصل ، 3/4،3 .

(4) أنظر فتواه مفصلة بخصوص هذا الشأن عند ابن حزم " رسالة التلخيص ، رسائل ، 2/173 ؛ وكذا فى ملاحق كتابنا ابن حزم الظاهرى وأثره فى المجتمع الأندلسى .

التعددية ، مستندا على حججه فى إبطالها والرد على من أجازها [1] ؛ وهو ما يوضح امتداد أثره حتى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى بالأندلس . بل امتد لخارجها إلى المشرق حيث تأثر (الماوردى) الفقيه الشافعى بالكثير من آرائه السياسية على ما سيتضح بعد قليل ، وتبنى رأيه فى التعددية ، ولم يؤيد رأى معاصريه من فقهاء المشرق ممن أجازوها [2] .

ولم يقف الأمر بملوك الطوائف عند هذا الحد، بل راحوا يحاكون الخلفاء العباسيين والفاطميين في ترفهم وألقابهم؛ فمنهم من تسمي بالمعتصم، والمتوكل ، والمعتمد، والمعتضد ،والمأمون، والمستعلي، وغير ذلك .....[3] وزادوا في غيهم فحالفوا النصارى ضد بعضهم البعض في مقابل الحصول علي مكاسب مادية وتوسيع ممتلكاتهم علي حساب إخوانهم من المسلمين، الأمر الذي دفع ابن حزم إلى معارضة ذلك وأفتى أصحابه في نوازله بأن معظم ملوك الطوائف محاربون لله ورسوله وساعون في الأرض فسادا.

وهكذا فقد تركت الحالة السياسية المضطربة علي ابن حزم أثرا بالغا حتى عبر عن ذلك بقوله لصاحبه الذي صنف له طوق الحمامة : " فأنت تعلم أن ذهني متقلب بما نحن فيه من بنو الديار والخلاء عن الأوطان وتغير الزمان ونكبات السلطان وتغير الإخوان وفساد الأحوال .. " [4] .

---

(1) أنظر : الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق أحمد عبدالعليم ، دار الشعب ، القاهرة ، ط2 ، 1372هـ ، 264/1 وما بعدها .

(2) أنظر : الأحكام السلطانية ، ص10 .

(3) عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ضبط محمد سليمان العريان ومحمد العربي العلمي ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ط1 ، 1368 هـ/1949 م ، ص70 .

(4) أنظر : طوق الحمامة ، ص335.

المبحث الثانى

أصل ابن حزم ونشأته:-

ولد أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم بربض الزاوية من قرية لبلة niebla الواقعة فى بلدة منت ليشم بغرب الأندلس صباح يوم الخميس نهاية شهر رمضان سنة 384هـ / 7نوفمبر 994م (1) ، وقد عاش حياته الأولى فى صحبة أخيه أبى بكر الذى كان يكبره بخمس سنوات فى قصر أبيه أحد وزراء المنصور بن أبى عامر ، وابنه المظفر من بعده ، وكانت تربيته فى تلك الفترة على أيدي جوارى القصر الذى كان مقاما فى الشارع الآخذ من النهر الصغير على الدرب المتصل بقصر الزاهرة ، والملاصق لدار المنصور بن أبى عامر (2) ،

---

(1) صاعد بن أحمد الأندلسى ، طبقات الأمم ، تحقيق حسين مؤنس ، دار المعارف ، القاهرة ، 1993م ، ص98،99 ، وقد ذهب آنخل جونثالث بالنثيا وغيره إلى أن مولد ابن حزم سنة 383هـ /993م أنظر : تاريخ الفكر الأندلسى ، ص213 ، وهذا خطأ من وجهين :- الأول أن ابن حزم الإمام النسابة والمؤرخ النقادة كتب تاريخ مخولده لتلميذه صاعد بخطه ، وهو ما عرضناه بأعلاه ، ولا يمكن أن نترك قوله إلى سواه وهو الأعلم بتاريخ مولده ، الثانى :- أن كل من ترجموا له أجمعوا أن مولده سنة 384هـ / 994م . أنظر مثلا محمد بن أبى نصر الحميدى ، جذوة المقتبس ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، دار الكتاب المصرى واللبنانى ، القاهرة – بيروت ، ط2 ، 1410هـ / 1989م ، 489/2 ؛ ابن بشكوال ، الصلة ، 605/2 ؛ محمد بن عثمام الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسى ، مؤسسة الرسالة ، ط11 ، 1419هـ / 1998م ، 190/18 ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، 569/12 ؛ ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، دار إحياء التراث العربى ، (د.ت) ، 299/3 ؛ Asin placios, Aben hazam , T.1, P.38 . ، ولبلة قرية فى غرب الأندلس قرب المحيط الأطلنطى ، ومنت ليشم تعرف الآن باسم مونتيخار Montejar ، وتقع على بعد سبعة كيلومترات شمال مدينة ولبة الحالية . أنظر محمد بن على بن الشباط ، وصف الأندلس ، تحقيق أحمد مختار العبادى ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، 1967م ، 1968م ، مجلد 14 ص117 .

(2) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص122 ، 1123 ، 166 . وقد توفى أخيه أبو بكر فى الطاعون الذى اجتاح قرطبة فى عام 401هـ / 1010م أنظر ، نفس المصدر ، ص257 . وقد أقيم مكان قصر ابن حزم الآن كنيسة سان لورينزو بحى سان لورينزو . والزهراء مدينة أقامها المنصور سنة 368هـ / 978م بالقرب من قرطبة ، وجعلها مقرا للحكم والإدارة لمزيد من التفاصيل أنظر محمد بن عبدالله الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، تحقيق ليفى بروفنسال ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1937م ، ص80 – 82 .

ومن ذلك نعرف مدى المكانة التى كان يحظى بها والد ابن حزم لدى المنصور بن أبى عارم حتى جاوره فى السكن .

وكان لابن حزم إلى جانب القصر السابق مجموعة من الدور بعضها بالجانب الشرقى من قرطبة فى ربض الزاهرة ، والآخر ببلاط مغيث فى الجانب الغربى منها [1] الأمر الذى يوضح لنا الثراء الذى كان يتقلب فيه ابن حزم فى حياته الأولى ، حيث كان يلبس الحرير ولا يرضى من المكانة إلا بالسرير [2] كما يتضح لنا حجم الإقطاعات التى كان يمنحها المنصور لكبار رجال دولته المخلصين أمثال والد ابن حزم ، فضلا عن الذكاء الذى كان يتحلى به والد ابن حزم حتى حظى بهذه الدور ، وهو ما انعكس على ولده من بعده ، لكن ليس فى عالم السياسة ، بل فى دنيا العلم.

أما عن أصل ابن حزم فقد ثار الجدل حوله قديما وحديثا وقد تقصينا جل الأقوال التى قيلت بخصوص هذا الشأن فى كتابنا " ابن حزم الظاهرى وأثره فى المجتمع الأندلسى" وانتهينا إلى فارسيته اعتمادا على عدة براهين نذكر منها :

الأول :- قول ابن حزم نفسه بفارسيته وهو الحجة فى الأنساب حتى لقبه ابن خلدون بإمام النسابين والعلماء [3] ، ومن ثم فلا يمكن أن نترك قوله إلى سواه . **الثانى** :- أن ابن حزم لو لم يكن فارسيا لكان نصرانيا ، ولو كان من المولدين لشنع عليه أهل عصره قاطبة . ولكن لم نر ذلك إلا عند ابن حيان ، ولو كان ما قاله صحيحا لما التفت الناس إلى قول ابن حزم عن نفسه ، ولشنعوا بنصرانيته معتمدين على ابن حيان .

الثالث :- أن ابن حزم لو كان منتحلا للنسب الفارسى لكان ذلك فرصة لخصومه ، وهم كثير فى محاربة فكره وهدم آرائه ، خاصة وهو من مدرسة الحديث التى تغلب الجرح على التعديل ، فضلا عن أن من اختصاصات علماء الجرح والتعديل النظر فى أوطان الرواة

(1) نفسه ، ص 245 .

(2) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، 18 / 190 .

(3) أنظر : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، 97/6 .

وأنسابهم . ولم نجد أحدا من علماء هذا الشأن غمزه فى نسبه بل كلهم أثبتوا فارسيته ، وأجمعوا على ثقته ودقته فى النقل (1)

الرابع :- إجماع من ترجموا له على فارسيته وعروبته بالولاء .

الخامس :- تمنى ابن حزم ترك الأندلس والرحلة إلى المشرق ، ولعله فى ذلك كانت تحدوه نزعة الاتصال بأرومته الفارسية بالمشرق ، إلى جانب الالتقاء بأتباع المدرسة الظاهرية به .

السادس :- معرفة ابن حزم باللغة الفارسية وإجادته لبعض ألفاظها (2) ، وهذا ينم عن اعتزازه بأصله الفارسى .

خرج ابن حزم من وسط أسرة عرفت الإسلام منذ جده الأعلى يزيد بن أبى سفيان ، وكان خلف أول من دخل الأندلس من أسرته فى صحبة الأمير عبدالرحمن الداخل ، وكان مقامه فى لبلة (3) ، ومن ذلك نعرف أن مقر هذه الاسرة كانت الشام بعد مشاركة يزيد أصل هذه الاسرة فى الفتوحات الإسلامية بها ، ولما خرج عبدالرحمن إلى الأندلس خرج معه خلف بن معدان . وقد بدأت هذه الأسرة تحتل مكانها الرفيع كواحدة من كرائم العائلات بالاندلس فى عهد الحكم المستنصر ، ونجحت فى امتلاك قرية بأسرها هى منت ليشم (4) ، ولا يعلم هل

(1) أنظر : أحمد بن محمد بن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1398هـ/1978م ، 325/3 ؛ الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، 193/18،187،184 ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، 569/12 ؛ أحمد بن على بن حجر ، لسان الميزان ، دائرة المعارف الكائنة فى الهند ، 1330هـ ، 198/4 ؛ عبدالرحمن جلال الدين السيوطى ، طبقات الحفاظ ، تحقيق على محمد على ، مكتبة وهبه ، القاهرة ، ط1 ، 1393هـ/1973م ، ص436 ؛ أبوالمحاسن يوسف بن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1353هـ/1935م ، 75/5 ؛ ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، 299/3 .

(2) يعقوب يوسف الفلاحى ، ابن حزم لغويا ، رسالة دكتوراه ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، 1400هـ/1980م ، ص176-179 .

(3) الذهبى ، مصدر سابق ، 185/18 ؛ محمد أبوزهرة ، ابن حزم حياته وعصره ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، 1373هـ/1954م ، ص27 ؛ سهير فضل الله ، سيرة ابن حزم ، ص17 .

(4) ياقوت الحموى ، معجم الأدباء ، تحقيق أحمد فريد الرفاعى ، دار المأمون ومكتبة القراء والثقافة الأدبية ، (د.ت) ، 240/12 ؛ وانظر عبدالحليم عويس ، ابن حزم ، ص58

خلف بن معدان هو الذى تملكها أم أبناؤه من بعده ؛ ولعل ذلك يحيلنا إلى مدى ذكاء هذه الاسرة الذى انعكس بدوره على أحمد بن سعيد وولده ابن حزم من بعده.

ويعتبر أحمد بن سعيد أحد مشاهير هذه الأسرة ومؤسس ملكها حتى قال عنه ابن حيان : " الوزير المعقل فى زمانه الراجح فى ميزانه ... هو الذى بنى بيت نفسه فى آخر الدهر برأس رابية وعمده بالخلال الفاضلة من الرجاحة والمعرفة والدهاء والرجولة " (1) ، وكان لهذه الصفات إلى جانب اتجاهه للحزب الاموى وعمق ولائه لأمرائه وخلفائه دور مهم فى استوزار المنصور له سنة 381هـ/991م ، وبلغ من شدة ثقته به انه كان يستخلفه على المملكة أوقات مغيبه عنها ، وصير خاتمه فى يده (2) ، وكان لأحمد بن سعيد مجلس يحضره العلماء والشعراء أمثال أبى عمر بن حبرون وخلف بن رضا (3) ، وكان له باع طويل فى الشعر ومشاركة قوية فى البلاغة والادب حتى إنه ليتعجب ممن يلحن فى مخاطبة أو يجىء بلفظة قلقة فى مكاتبة (4) ، وقد كان لهذا أثره على ولده ابن حزم فى تمكنه من اللغة والشعر واهتمامه بهما ، حتى أن بلاغته كان لها من التأثير أنها تأخذ بمجامع القلوب وتنفذ إلى أعماق النفوس فى أسلوب سهل ممتنع رقيق يخلو من الاستطرادات ويتسم بطول النفس وجمال النكتة وخفة الروح ، كما كان أحمد بن سعيد من المشاركين فى حركة الإفتاء بالأندلس من خلال مجالسه العلمية والمناظرات التى كانت تدور فى قصره حتى قال عنه ابن العماد : " كان مفتيا لغويا متبحرا فى علم اللسان " (5) ، وهذه العبارة توضح الأثر الذى تركه أحمد بن سعيد على ولده ابن حزم الذى اعتمد فى فتواه وتفسيره لنصوص القرآن والسنة على ظاهر اللغة (6) ، ومن ثم

---

(1) نقلا عن ابن بسام ، الذخيرة ، قسم1 مجلد1 ص170 .

(2) Asin Placios , Aben hazam de cordoba , T.1 , P.35-36 . ، وانظر إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسى ، عصر سيادة قرطبة ، دار الثقافة ، بيروت ، ط1 ، 1960م ، ص248،247.

(3) الضبى ، بغية الملتمس ، ص263 ؛ وانظر إحسان عباس ، المرجع السابق ، ص248 .

(4) الحميدى ، جذوة المقتبس ، 199/1 ؛ وانظر : المقرى ، نفح الطيب ، 72/6 .

(5) أنظر: شذرات الذهب ، 163/3 .

(6) عن استخدام ابن حزم للغة كأساس فى الفتوى والتفسير أنظر ، الفصل ، 4،5،7/2 ؛ رسائل ابن حزم ، 163/3

كان والده أحد الأسباب التى دفعته إلى المنهج الظاهرى فى الفتيا والتفسير بالرغم من أنه كان مالكى المذهب .

ظل أحمد بن سعيد وزيرا بعد المنصور لابنه المظفر ، وأخيه عبدالرحمن شنجول إلى أن أعفى من منصبه فى عهد محمد المهدى ، وترك منية المغيرة موطن كبار موظفى البلاط وعاد لسكنه القديم فى بلاط مغيث بعيدا عن صخب السياسة ، وبعد اغتيال المهدى فى ذى الحجة 400هـ/1010م ومبايعة هشام المؤيد ثانية بعد الزعم بموته . اصطدم أحمد بن سعيد بالقائد الصقلبى واضح محسوب الخلافة الذى لاحقه وسجنه وصادر أمواله ، وظلت الفتن والنكبات تتوالى على بنى حزم حتى وفاة أحمد بن سعيد فى ذى القعدة 402هـ/1012م [1] ، وكان لهذه النكبات أثرها السيء على ابن حزم إذ أنها زادت من حزنه ، وكانت أحد أسباب حدته التى تظهر جلية فى مصنفاته .

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص246 ؛ وأنظر الطاهر مكى ، دراسات عن ابن حزم ، ص69،70 .

المبحث الثالث

تكوين ابنُ حزم العلمى ومصادر فكره:ـ

كان ابن حزم قد بدأ حياته العلمية بحفظ القرآن الكريم وبعض الأشعار مع التدرب على الخط وهو لايزال صغيراً ، ثم اتجه لدراسة الحديث وعلومه وهو فى الرابعة عشر من عمره على يد شيخه الأول أحمد بن محمد بن الجسور قبل الأربعمائة ، ثم تتابعت تحصيلاته عن كل من اشتهر بالحديث يقرطبة (1) ، وأما ما روى عن أبى محمد بن العربى واعتمد عليه بعض الباحثين المحدثين من أن سبب تعلم ابن حزم الفقه أنه شهد جنازة فدخل المسجد فجلس ولم يركع فقال رجل قم فصل تحية المسجد ، وكان قد بلغ ستة وعشرين عاما ، ثم لما رجع من الجنازة دخل المسجد فبادر بالركوع فقيل له ليس هذا بوقت للصلاة ، وكان بعد العصر فانصرف وهو حزين ، وقال لمربيه دلنى على دار الفقيه ابن دحون . فقصده فدله على الموطأ ثم بدأ المناظرة بعد ثلاثة أعوام . وكذا ما روى عن أبى محمد بن العربى أيضا من أن ابن حزم قام فى الوزارة من وقت بلوغه إلى انتهاء سنه ستة وعشرين عاما ، وقال إننى بلغت هذا السن وأنا لا أدرى كيف أجبر صلاة من الصلوات (2)

فهاتان الروايتان ساقطتان من وجوه :-

الأول : أن ابن حزم بدأ سماعه للحديث من شيخه ابن الجسور قبل الاربعمائة ، وكان سنه آنذاك أربعة عشر عاما ، ثم تتابعت تحصيلاته بعد ذلك ، وإذا علمنا أن بعض دروسه كان يتلقاها فى المساجد مثل مجلس أبى سعيد مولى الحاجب جعفر فى المسجد الجامع بقرطبة ،

---

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص263 ؛ وانظر الذهبى ، تاريخ الإسلام ، دار الغد العربى ، القاهرة ، ط1 ، 1996م ، 35/11 .

(2) أنظر : ياقوت ، معجم الأدباء ، 12/241،240 ؛ الذهبى ، تذكرة الحفاظ ، دائرة المعارف الكائنة فى الهند ، ط1 ، 1334هـ ، 3/326،325 ؛ بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسى ، ص214 ، 215 ؛ سعيد الأفغانى، ابن حزم الأندلسى ورسالته فى المفاضلة بين الصحابة ، دار الفكر العربى ، بيروت ، 1389هـ/1969م ، ص33،32 ؛ الطاهر مكى ، دراسات عن ابن حزم ، ص67 ؛ عبداللطيف شرارة ، ابن حزم ، ص64،63 ؛ عبدالرحمن الحجى ، أندلسيات ، دار الإرشاد ، ط1 ، 1388هـ/1969م ، ص124،123 .

ومجلس الهمدانى بمسجد القمرى بالجانب الغربى منهاوالذى حضره وحدث عنه سنة 401هـ/1010م [1] ، ومن البدهى أن بعض الصلوات كانت تدركه فى المسجد فيصليها أو على الاقل يرى الناس يصلون فيتعلم منهم إن لم يكن يعلم ، فضلا عن أن أول دروس الفقهاء والمحدثين هى الطهارة والصلاة ، ولابد أن يكون قد تعلمها وأتقن دراستها مما يجعله يعلم وقت الكراهية من غيره .

الثانى : أن والد ابن حزم الذى كانت تعقد المجالس العلمية فى قصره .من المحال أن يدع ابنه دون أن يرعاه بالثقافة الإسلامية ، خاصة إذا علمنا مكانته العلمية كما سبق.

الثالث : أن ابن حزم كان قد صلى فى ألوف الناس صلاة الجنازة على هشام المؤيد عندما أشيع أنه مات بعد حجبه سنة 399هـ/1008م ، وجىء برجل يشبهه فكفن وصلى عليه ، ثم ظهر المؤيد بعد ذلك بسبعة أشهر [2] ، وهذه الصلاة كانت وهو فى الخامسة عشر.من عمره ، حيث كان مدركا لصلاة الجنازة التى لا تصلى إلا من وقت لآخر ، فكيف يجيدها ولا يجيد باقى الصلوات الأخرى الفروض منها والنوافل .

الرابع : أن ابن حزم جادل إسماعيل بن النغريلة اليهودى سنة 404هـ/1013م أعلم اليهود وأجدلهم فى عصره حول بعض مسائل التوراة وخطأه بالحجة والبرهان[3] ، وكان سن ابن حزم- آنذاك- دون العشرين ، ومن المحال أن يكون قد أحاط بالديانة اليهودية حتى يخطىء إمامها فيعصره ، ولا يدرى كيف يجبر صلاة من الصلوات ، أو يخطىء فى الوقت الذى تجوز فيه الصلاة أو لا تجوز .

الخامس : أن الرواية الأولى فيها أن ابن حزم تتابعت قراءاته ثلاث سنوات ، ثم بدأ المناظرة ، أى وهو فى التاسعة والعشرين من عمره ، وهذه ينقضها رواية عمر بن واجب التى

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، دار ابن خلدون ، ص164،165 .
(2) ابن حزم ، الفصل ، 76/1 .
(3) ابن حزم ، الفصل ، 178/1 .

جاء فيها أنه ناظر ببلنسية أحسن مناظرة [1] ، وكان ذلك فى عام 408هـ/1017م ، حيث كان سن ابن حزم أربع وعشرين عاما ، مما يؤكد أن مطالعاته بدأت قبل هذا التاريخ بكثير .

السادس : أن الرواية الأولى فيها أن ابن حزم لم يعرف الموطأ إلا وهو فى السادسة والعشرين من عمره ، وهذا من أمحل المحال وأمر ظاهر البطلان ، وليس أدل على ذلك أنه روى الموطأ عن شيخه ابن الجسور المتوفى فى العام 401هـ ودرسه على يديه وكان عمره بين الخامسة عشر والسابعة عشر ، وكذا درسه أى الموطأ وعلم الفقه على يد شيخه الإستجى المتوفى فى العام 406هـ وكان عمره لا يزيد عن اثنتين وعشرين عاما ، قبل أن يرويه عن شيخه ابن دحون المتوفى فى العام 431هـ .

ومن ثم يتبين من خلال العرض السابق بطلان هاتين الروايتين .

وقد تعددت المصادر التى شكلت فكر ابن حزم وثقافته ما بين بيئة أثرت فى توجهه الفكرى ، وشيوخ سمع منهم سماعا جما ، ومجالس علمية وأدبية ، ورحلات من مدينة لأخرى بالأندلس ، وكتب متنوعة فى شتى ضروب المعرفة ، وسوف نتحدث عن كل مصدر من هذه المصادر مظهرين المعرفة الثقافية التى ألم بها ابن حزم ، وبرز وسط العديد من الذين ناصبوه العداء كعلم بارز شغل أهل عصره ومن تلاهم بفكره الأصيل . فى حين أصبح خصومه فى طى النسيان ولا ذكر لهم .

ويأتى فى مقدمة هذه المصادر البيئة التى نشأ فيها وأحاطت به ، إذ شهدت الأندلس فى عصره نهضة فكرية فى شتى المعارف النقلية والعقلية فالفقهاء ذوو الآفاق الواسعة كانوا أدباء وشعراء ومؤرخين ، ولم يقتصروا فى دراساتهم على المذاهب الفقهية لا يعدونها ، ومن هؤلاء أحمد بن الجسور ، ومسعود بن سليمان بن مفلت ، وأحمد بن محمد الطلمنكى ، وعبدالله بن محمد بن يوسف الأزدى المعروف بابن الفرضى [2]، كما أن حركة الترجمة التى ازدهرت فى

---

(1) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، 191/18 ؛ وعمر بن واجب ابن أحد علماء المالكية ، ولم نعثر له على ترجمة فيما بين أيدينا من مصادر .

2 عنهم وعن غيرهم من مشايخ ابن حزم أنظر كتابنا ابن حزم الظاهرى وأثره فى المجتمع الأندلسى، ص341-346.

المشرق آتت أكلها فى الأندلس فى آخر القرن الثالث والرابع الهجريين ، ثم كان الفلاسفة الأندلسيون . بعد ذلك ومنهم ابن حزم الذى نهل من هذا الينبوع ، وتأثر به ، وليس أدل على ذلك من كتابته فى الفلسفة والمنطق ، فضلا عن أسلوبه الجدلى فى الحوار والمناقشة (1) . كما أن معرفة الأندلس للمذاهب والفرق الإسلامية كانت فرصة لابن حزم فى الإطلال عليها ، والانتقال من المذهب المالكى إلى الشافعى بعد مطالعة كتبه ، ثم الانتقال إلى الظاهرى والثبات عليه بعد الاقتناع بأسسه وأصوله ، كما طالع كتب الفرق الإسلامية من خوارج وشيعة ومرجئة ومعتزلة ، وأظهر ما فيها من أخطاء وشطحات . كما أن ظاهرة الاختلاط بين اليهود والنصارى والمسلمين كانت أحد الأسباب التى دفعت ابن حزم لمطالعة كتب الديانتين اليهودية والنصرانية والنظر فيها ، ثم مناظرة أتباعها وإظهار ما هم عليه من الضلال (2) ، وكان لازدهار العلوم العقلية خاصة الفلك والطب والصيدلة أثر على ابن حزم فى توجهه لدراستها دراسة متقنة حتى أنه توصل إلى كروية الأرض ، وإلى نظرية الجزىء الذى يتجزأ إلى ما لانهاية ، ونظرية النسبية التى سبق بها إينشتين بقرون (3) ، فضلا عن تصنيفه فى الطب وممارسته له مما حدا بابن كثير أن يصفه بقوله: " كان أديبا طبيبا شاعرا فصيحا " (4) . كما كان لاهتمام حكام الأندلس بالحركة العلمية ومراكزها دور فى إذكاء فكره وإثرائه خاصة مكتبة الحكم المستنصر التى تردد عليها فى حداثة سنه قبل أن تبدد ويباع أكثرها أثناء حصار البربر لقرطبة سنة 401هـ/ 1011م ، واستفاد منها فى كتبه ومصنفاته(5)، وكان لطبيعة الأندلس بجبالها الرائعة ورياضها الفيحاء ومروجها الخضراء أثر كبير عليه إذ استمد من ذلك صفاء الفكرة ودقة الحس وإرهاف الذوق ، والمطالع لكتابه (طوق الحمامة) يلمس ذلك جليا ، كما أن التقليد الذى درج عليه مالكية الأندلس لإمامهم

(1) محمد أبوزهرة ، ابن حزم ، ص110 .
(2) أنظر : الفصل ، 1/138-323 .
(3) نفسه ، 1/352-361 ، 3/273-287
(4) أنظر : البداية والنهاية ، 12/569 .
(5) أنظر : جمهرة أنساب العرب ، ص88، 310 ، 399 ، 408 .

وتلاميذه دون اجتهاد أو رد للكتاب والسنة كانت من الأسباب التى دفعت ابن حزم إلى الاجتهاد والمعارضة بالحجة ورفض كل قول لا يستند على برهان .

وتأتى الشيوخ فى المرتبة الثانية كأحد المصادر الهامة التى كونت فكر ابن حزم وأصقلته ، إذ أنه سمع سماعا جما عن معظم مشايخ الأندلس فى شتى التخصصات من حديث وفقه وفلسفة ومنطق وطب وتاريخ ولغة وفرق وديانات (1) ، وقد أسلفنا أن أول شيخ سمع عليه هو أحمد بن الجسور وكان قبل الأربعمائة ، وقد قرأ عليه كتاب تاريخ الرسل والملوك لمحمد بن جرير الطبرى ، وروى عنه موطأ مالك ، ومدونة سحنون ، ومسند ابن أبى شيبة ، وفقه أبى عبيد القاسم بن سلام ، ومسند عبد بن حميد (2) ، وهكذا درس ابن حزم على يديه ثلاثة علوم فى آن واحد هى التاريخ والفقه والحديث ، وكان لا يزال دون الخامسة عشر من عمره ، وبالرغم من ذلك كان شغله الشاغل فى تلك الفترة هو علم الحديث الذى حصله من كل علمائه المشهورين بقرطبة ، ومنهم عبدالرحمن بن محمد بن أبى زيد الأزدى العتكى ، وأحمد بن محمد الطلمنكى ، والمهلب بن أحمد بن أسد التميمى ، وأبوسليمان داود بن يحيى المصرى ، وعبدالله بن محمد المعروف بابن الفرضى ، الذى تاثر به ابن حزم فى علم الجرح والتعديل ، وسائر علوم الحديث ، وأبوبكر بن عبدالرحمن بن مسعود بن موسى القرطبى ، وعبدالرحمن بن عبدالله بن خالد الهمدانى ، وعبدالله بن ربيع المعروف بابن بنوش ، وحمام بن أحمد الأطروش (3).

---

(1) أحصيت لابن حزم سبعين شيخا ، وعنهم أنظر كتابنا ابن حزم الظاهرى وأثره فى المجتمع الأندلسى ، ص341-346.

(2) الحميدى ، جذوة المقتبس ، 1/173،172 ، ترجمة 181 ؛ الضبى ، بغية الملتمس ، ص155،154 ، ترجمة 336 ؛ سالم يفوت ، ابن حزم ، ص45 ، 46 .

(3) أنظر : ابن حزم ، الفصل ، 1/359 ؛ رسالة فى فضل الأندلس ، ص180 ؛ طوق الحمامة ، دار ابن خلدون ،ص164 ؛ الأصول والفروع ، ص401 ؛ حجة الوداع ، تحقيق ممدوح حقى ، دار اليقظة العربية ، (د.ت) ، بيروت ، ط2 ، 1966م ، ص59 ، 61، 62 ، 94 ؛ المحلى ، تحقيق عبدالغفار سليمان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1408هـ/1988م ، 5/23 ، 54،53،41،32،24 ؛ سالم يفوت ، ابن حزم ، ص46-51 .

وتجدر الإشارة إلى أن السبب فى إقبال ابن حزم على الحديث هو رواج هذا العلم بالأندلس وكثرة علمائه حتى أن الطلبة كانوا يخروجون فى جماعات لطلبه من شيوخه [1] ، أضف إلى ذلك أن مذهب مالك كان قائما على الحديث ، وكتابه الموطأ خير دليل على ذلك ، حيث سلك فى جمعه مسلك المحدثين ، ومن ثم فقد اهتم بعض المالكية بعلم الحديثه وتدريسه ، وهؤلاء كانوا - فى جملتهم- مشايخ لابن حزم ، وقد ذكرنا بعضهم سابقا ، وابن حزم باعتباره مالكى المذهب فى تلك المرحلة ، وتلميذا لهؤلاء الشيوخ كان لزاما عليه أن يتبع منهجهم فى الدراسة والتعليم حيث الاهتمام بالحديث وعلومه ، وكان لإقبال ابن حزم على الحديث فى تلك المرحلة أن أشربت نفسه حبه ، ومن ثم ازداد إعجابا بالمحدثين ومنهجهم فى الاعتماد على النصوص – القرآن والسنة – ونبذ القول بالرأى الذى كان أحد أصول مذهب مالك ، مما دفعه إلى نبذ المذهب المالكى والانتقال إلى الشافعى على ما سيتضح ، ثم التمسك بالمذهب الظاهرى الذى يعزز النصوص ولا يعول على غيرها من قياس واستحسان ومصالح مرسلة .

وبعد أن تضلع ابن حزم فى الحديث اتجه إلى الفقه يحقق فيه ما حققه فى الحديث آملا أن يصلح حال المجتمع الذى انغمس فى الشهوات والملذات بفعل فتاوى الفقهاء التى اعتمدت على الرأى والقياس دون الرجوع إلى نصوص الشرع ،فدرس الفقه المالكى على أيدى فقهاء المالكية فى عصره؛ مثل عبدالله بن يحيى بن أحمد بن دحون الذى كان عليه مدار الفتيا بقرطبة [2] ، وأبوالحسين بن على الفاسى الذى ترك أثرا واضحا على ابن حزم حتى اعترف بفضله قائلا: " ما رأيت مثله جملة علما وعملا ودينا وورعا فنفعنى الله به كثيرا ، وعلمت موضع الإساءة وقبح المعاصى " [3] ، وعبدالله بن عبدالرحمن بن جحاف قاضى

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، دار الهلال ، ص161 .

(2) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص266 ؛ وانظر . Asin placios , Abenhazam , T.1,P.108

(3) أنظر : طوق الحمامة ، دار ابن خلدون ، ص155 .

بلنسية الذى وصفه ابن حزم بقوله " هو من أفضل قاض رأيته دينا وعقلا وتعاونا ، حظه وافر من العلم " (1)

لقد كان لدراسة ابن حزم الفقه فى بادىء أمره على هؤلاء الشيوخ وقراءته لكتب المذهب أثر كبير على فكره ، حيث تأثر ببعض المسائل الفقهية على مذهب مالك ، ودونها فى فقهه الظاهرى ، مثال ذلك (الحكم بجزاء واحد على القارن والمعتمر والمتمتع فى حل أو حرم إذا أصابوا صيدا ، ويكون مثل ما قتل من النعم ، والأكل من كل ما قتله الجارح المعلم . سواء علمه وثنى أو مسلم ، وكذا الصيد بسهم صنعه وثنى أو مسلم ، وتقسيم أربعة أخماس الغنيمة الباقية بعد الخمس على من حضر الموقعة أو الغنيمة على النحو التالى : لصاحب الفرس ثلاثة أسهم : له سهم ولفرسه سهمان ، وللراجل وراكب البغل والحمار والجمل سهم واحد) وغير ذلك مما هو مدون فى فقه الظاهرية (2)

وبعد أن درس ابن حزم المذهب المالكى نراه يتحول عنه إلى المذهب الشافعى ، وكان ذلك قبل سنة 406هـ / 1015م وهى السنة التى توفى فيها شيخه أبوالقاسم سلمة بن سعيد الأنصارى الذى درس عليه المذهب الشافعى وتأثر به(3) . وتكمن أسباب تحوله إلى المذهب الشافعى فى الآتى:-

---

(1) نقلا عن الذهبى ، تاريخ الإسلام ، 235/11 .

(2) أنظر : المحلى ، مسائل رقم 833 ، 886 ، 950 ، 1093 ، لقد اتفق العلماء على تقسيم خمس الغنيمة اعتمادا على قوله تعالى (واعلموا أن ما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) الأنفال آية 41 . أما الأربعة أخماس الأخرى فقد اختلفوا فيها حسب فهمهم للأحاديث الواردة بخصوص هذا الشأن . فقد ذهب مالك إلى ما ذكرناه بأعلاه وتبعه فى ذلك الشافعى وداود الظاهرى ، ومن ثم فإن تبنى ابن حزم لرأيه فى تقسيم الأربعة أخماس يرجع إلى أيام كان مالكى المذهب ، وذلك لتقدم مالك على كل من الشافعى وداود من الناحية الزمنية ، ثم إن ابن حزم قد اطمأنت نفسه لهذا الرأى عندما علم أنه مذهب الشافعى وداود ، وقد ذهب أبوحنيفة إلى أن للفارس سهمان له سهم ولفرسه سهم ، وللراجل وراكب الحمار والبغل والجمل سهم ، وقال أحمد للفارس ثلاثة أسهم ، ولراكب البعير سهمان ، ولغيرهما سهم . أنظر نفس المصدر ، 392،393/5 .

(3) سالم يفوت ، ابن حزم ، ص51 .

أولا : الحرية الفكرية التى كان يتطلع إليها ابن حزم ، فضلا عن نفوره من التقليد الذى كان سمة المذهب المالكى فى عصره حتى أن بعض علماء المذهب أنفسهم كابن عبدالبر انتقدوا ذلك (1)

ثانيا : الإعجاب الذى كان يكنه ابن حزم للشافعى ، وذلك لتمسكه بالنصوص واعتباره أن الفقه نص ، فضلا عن حملته الشديدة على من أفتى بالاستحسان والمصالح المرسلة (2).

ثالثا : قصور المذهب المالكى عن أن يفى لابن حزم بما وجده فى المذهب الشافعى من تأصيل فقهى واستنباط عقلى يعتمد على النصوص ، فضلا عن الحوار والجدل المحمود.

رابعا : فقدان ابن حزم لأسرته خاصة والده الذى كان أحد رجال الدولة ، والمتمذهبين بمذهبها الرسمى وهو المالكى ، ثم النكبات السياسية التى وقعت به وبأسرته ، والتى ألجأته للهجرة من قرطبة إلى غيرها من مدن الأندلس . كل هذا كان له أثره عليه فى أن يترك كل رمز يدنيه من الحياه أيام السلطة التى تنكرت له ولأسرته . فكان التحول إلى مذهب جديد يخالف المذهب الرسمى للدولة وهو الشافعى .

خامسا : التحول الفقهى لدى الشافعى فى إصدار الأحكام ، إذ أنه غير الكثير من آرائه التى قال بها فى العراق عندما أتى إلى مصر. فلعل هذا كان مبررا لابن حزم فى تحوله من المذهب المالكى إلى الشافعى .

وتجدر الإشاره إلى أن دراسة ابن حزم للمذهب الشافعى تركت أثرا عليه فى بعض المسائل الفقهية التى رجح فيها رأى الشافعى مثل (إيجابه القطع على من سرق المصحف ، والجلد أربعين لشارب الخمر ، وإباحة النكاح الذى يستكتم فيه الشاهدان ، ورفضه أن يزوج الأب ابنته الصغيرة بأقل من مهر مثلها) (3) قد ظل ابن حزم متبعا للمذهب الشافعى ما

---

(1) أنظر : جامع بيان العلم ، ص533 . ابن عبدالبر هو صاحب ابن حزم ، وكان ظاهرى المذهب ، ثم تحول إلى المالكى . عنه أنظر الملاحق .

(2) محمد أبوزهرة ، تاريخ المذاهب الإسلامية ، ص541 ، 542 ؛ وانظر , Asin placios , Abenhazam. P.129,T.1 ,

(3) أنظر : المحلى ، مسائل 1830 ، 1832 ، 1835 ، 2277 ، 2291 .

يقرب من اثنتى عشرة سنة ، ثم تحول عنه إلى المذهب الظاهرى الذى أخذه عن شيخه أبى الخيار مسعود بن سليمان القرطبى ، وتأثر به فى نبذ التقليد والدعوة إلى الاجتهاد حتى عده من الأئمة المجتهدين (1).

أما بخصوص علم التاريخ فقد سبق أن ذكرنا أن ابن حزم درسه لأول مرة على يد شيخه أحمد بن الجسور ، وكان لايزال فى الخامسة عشر من عمره . ثم تتابعت دراساته واهتماماته بهذا العلم فأخذه عن مجموعة من الشيوخ بعد ابن الجسور منهم عبدالرحمن بن محمد بن أبى زيد العتكى ، وعبدالله بن يوسف بن الفرضى ، الذى درس عليه كتبه التاريخية خاصة تاريخ علماء الأندلس ، وأبيعبدالله محمد بن عمرو بن مضاء ، وأبيالمحيا ملهم بن موازن وغيرهم (2) ، وقد استفاد من هذا العلم فى تمحيص أسانيد الأحاديث والروايات التاريخية ، والدفاع عنه ضد المنتقصين منه ، ويمكن أن نرجع اهتمام ابن حزم بالتاريخ فى تلك المرحلة إلى الآتى :-

أولا : ازدهار تدريس التاريخ آنذاك لارتباطه بالعلوم الشرعية ، فقد كان يستفاد منه فى معرفة تاريخ الرواه ومواطنهم وأنسابهم ، ومن ثم التعرف على صادقيهم من كاذبيهم . من خلال فحص ما نقل عنهم من روايات ، وذلك مثل ما روى عن سهيل بن ذكوان السندى أنه لقى عائشة رضى الله عنها بواسط ، وهذا كذب لأن عائشة توفيت سنة 58هـ/678م قبل أن يخط الحجاج بن يوسف الثقفى مدينة واسط بزمن (3) ، كما كان يستفاد منه فى التفسير من

(1) أنظر : الإحكام فى أصول الأحكام ، دار الحديث ، القاهرة ، ط2 ، 1413 هـ / 1992م ، 95/2 .

(2) أنظر : ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص313،312 ؛ جمهرة أنساب العرب ، ص287 ؛ رسالة فى فضل الأندلس ، رسائل 180/2 ؛ الضبى ، بغية الملتمس ، ترجمة 225 ؛ سالم يفوت ، ابن حزم ، ص46.

(3) لمزيد من التفاصيل عن ذلك أنظر محمد بن عبدالرحمن السخاوى ، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، تحقيق محمد عثمان الخشت ، مكتبة ابن سينا ، القاهرة ، 1409هـ/1989م ، ص21-27 . وواسط مدينة بناها الحجاج سنة 86هـ/705م فى عهد عبدالملك بن مروان ، وسماها واسط لتوسطها بين البصرة والكوفة والأهواز والمدائن . أنظر ياقوت ، معجم البلدان ، دار الفكر ، بيروت ، (د.ت) ، 348/5 ، وعن الحجاج أنظر ابن كثير ، البداية والنهاية ، 156/9-162.

خلال اهتمامه بأسباب النزول التى لاتفهم آيات القرآن إلا بها . أضف إلى ذلك أهميته بالنسبة للفقه حيث الاستناد على بعض الوقائع التاريخية التى تؤيد الفتوى وتؤكدها .

ثانيا : أهمية التاريخ فى معرفة بعض الأنساب التى يعرف بها الحق من الباطل . كمعرفة أن الخلافة لا تجوز إلا لقرشى النسب ، ومعرفة أنساب الأنصار لنحسن إليهم . كما أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومعرفة من تحرم عليهم الصدقة من آل محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعرفة من يحل له الميراث ومن لايحل (1).

ثالثا : دعوة القرآن والسنة فى غير موضع إلى الاهتمام بالتاريخ وأخذ العبرة والعظة منه ، ومن ثم فقد جعل ابن حزم العلم بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم من الشروط التى لا يحل للمفتى أن يتقلد الإفتاء بدونها (2).

رابعا : تجريد التاريخ مما علق به من شكوك وملابسات . خاصة وقد توافرت فى ابن حزم شروط المؤرخ الحصيف من عدالة وضبط وعلم بطرق النقل وأحوال الناس ومقاديرهم ، ومعرفة مراتب العلوم ، وعدم المحاباة المفضية للعصبية (3).

خامسا : محاولة ابن حزم أن ينشر فكره ومنهجه بكل الطرق . خاصة وأنه طبق منهجه الظاهرى على التاريخ عندما اعتبر أن النقل هو الأساس فى دراسة التاريخ قبل العقل ، ومن ثم صنف ابن حزم فى معظم فروع التاريخ من تراجم وطبقات وأنساب وسيرة ذاتية ، وتاريخ إقليمى ، وسيرة نبوية ، وتأريخ للفرق الإسلامية واليهودية والنصرانية (4) .

سادسا : تأثير والده أحمد بن سعيد الذى كانتله اليد الطولى فى تشكيل ثقافه ابنه التاريخية ، حيث كان يحدثه بالأحداث المهمة التى وقعت فى عصره بحكم شخصه ومكانته فى الدولة وإلى مثل هذا يشير ابن حزم بقوله : " حدثنى وهزنى الوزير والدى نضر الله وجهه " (5)

---

(1) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص80-88 .

(2) أنظر : الإحكام ، 2/118 .

(3) السخاوى ، الإعلان ، ص80-88 .

(4) عبدالحليم عويس ، ابن حزم ، ص161،160، 202-220 .

(5) أنظر : نقط العروس ، رسائل 2/94 فقرة 76 .

وإلى جانب التاريخ فقد درس ابن حزم اللغة العربية وآدابها على غير واحد منهم أبوسعيد مولى الحاجب جعفر الذى تلقى عنه الأدب الجاهلى حيث قرأ عليه قصيدة طرفة بن العبد وشرحها (1) ، وحمام بن أحمد الأطروش الذى تلقى عنه الشعر والبلاغة إلى جانب الحديث ، وعبدالعزيز بن محمد بن عبدالعزيز الذى تلقى عنه الشعر ، وأبوالحسن على بن محمد صاحب كتاب (التشبيهات من أشعار أهل الأندلس) (2) ، وأبوعبدة حسان بن مالك الذى ترك أثرا واضحا على ابن حزم فى اللغة حتى وصفه بقوله " وكان أذكر من لقينا للغة مع شدة عنايته بها ، وثقته وتحريه فى نقلها " (3) ، وكان من أسباب اهتمام ابن حزم بدراسة اللغة فى تلك المرحلة أمران :-

أولهما : تأثره بوالده الذى كان ينهى عن اللحن فى اللغة ويتعجب منه .

ثانيهما : المنهجية الظاهرية التى تعتمد على اللغة فى التفسير الظاهرى للنص إذا لم توجد نصوص أخر تصرفه عن ظاهره ، وكان لدراسته للغة وإتقانه لها أثر كبير فى أن جعلها أحد مصادر مذهبه الظاهرى إذا توقف النص.

كما درس ابن حزم الفلسفة والطب على يد محمد بن الحسن الكنانى ، الذى ترجع معرفته به لمجلس المنصور بن أبى عامر وابنه المظفر ، إذ أن والد ابن حزم كان وزيرا لكل منهما فى الوقت الذى كان محمد بن الحسن الكنانى طبيبا لهما (4) ، وقد تاثر ابن حزم به فى الفلسفة والمنطق وأثنى على براعته ومصنفاته فيهما ، كما درس الفلسفة والمنطق على يد ثابت بن محمد الجرجانى العدوى المكنى بأبى الفتوح ووصفه بقوله : " ما رأيت فى خلق الله عز وجل أعلم بهذا العلم منه ولا أحفظ له منه ولا أوسع فيه منه " (5) ، وكان لدراسته هذين

---

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص158 .

(2) الحميدى ، جذوة المقتبس ، 455/2 ترجمة 643 ؛ وانظر ، الضبى ، بغية الملتمس ، ترجمة 194 ؛ الذهبى ، تاريخ الإسلام ، 290/11 ؛ إحسان عباس ، رسائل ابن حزم ، 223/2 .

(3) أنظر : الإحكام ، 422/1 .

(4) الذهبى ، مصدر سابق ، 261/11 .

(5) نقلا عن إحسان عباس ، رسائل ابن حزم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط1 ، 1983م ، 39/4 . وعن الجرجانى أنظر الملاحق .

العلمين أثر فى تطويعه المنطق لخدمة الشرع من خلال استخدامه فى استنباط الأحكام الفقهية من النصوص الشرعية سابقا بذلك أباحامد الغزالى الذى احتذى حذوه فاستمد الأمثلة المنطقية من الفقه كما هو واضح فى كتابه المستصفى ، وبذلك فابن حزم سباق فى هذا المضمار وليس الغزالى كما يشاع ، كما استفاد من المنطق فى التأويل الذى استخدمه فى باب الأصول وآيات الصفات وأحاديثها (1) .

ويلى الشيوخ المجالس العلمية والأدبية التى لعبت دور مهما فى تشكيل فكر ابن حزم وثقافته ، ومنها مجلس والده الوزير الذى كان يعقد فى القصر ، وكان حافلا بشخصيات العصر من شعراء وأدباء ولغويين وفقهاء ، وقد أسلفنا أن والده كان يناقش فى مجلسه مشائل الفقه ويستمع إلى نصح الفقهاء ومدح الشعراء ويعترض على من يلحن فى اللغة . ووسط هذا الجو العلمى شب ابن حزم واستمع إلى الروايات المختلفة والأحاديث الدائرة بين المجتمعين ومنهم أحمد بن جبرون ، ومحمد بن إسحاق الذى تأثر به ابن حزم وعبر عن ذلك بقوله : " سمعته يقول لوالدى الوزير على سبيل الوعظ احرص على أن لا تعمل شيئا إلا بنية فإنك تؤجر فى جميع أعمالك ، وما زلت منذ سمعت ذلك منتفعا به " (2) ، كما حضر مجالس الرؤساء كمجلس المظفر بن أبى عامر ، وكانت أول مرة له فيه يوم عيد الفطر سنة 396هـ/1005م ، حيث استمع إلى الشعراء والأدباء ، خاصة الشاعر المشهور أبى العلاء صاعد (3) ، وكان والده هو الذى يدفع به إلى مثل هذه المجالس لتشكيل فكره الثقافى والسياسى معا ، والاتصال بأبناء الطبقة الحاكمة ، وقد أثمرت هذه السياسة ، وأصبح هذا

(1) أنظر : الفصل ، 2/3-12 ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، 12/569 . والغزالى هو محمد بن محمد ولد سنة 450هـ/1058م ، وتفقه على إمام الحرمين وبرع فى علوم كثيرة ، ودرس فى المدرسة النظامية ببغداد ، وهو ابن أربع وثلاثون سنة توفى سنة 505هـ/1111م لمزيد من التفاصيل أنظر ابن كثير، البداية والنهاية ، 12/672،671.

(2) نقلا عن الضبى ، بغية الملتمس ، ص60 ؛ وانظر ، عبدالكريم خليفة ، ابن حزم ، ص96،97 . لم نعثر على معلومات لكل من ابن جبرون وابن إسحاق غير ما ذكرنا .

(3) الحميدى ، جذوة المقتبس ، 1/375 ترجمة 510 . وصاعد أصله من بغداد ، برع فى اللغة العربية ، ودخل الأندلس فى عهد هشام المؤيد ن فأكرمه الحاجب المنصور ، وهو صاحب كتاب الفصوص الذى ألقاه المنصور فى النهر لما ظهر كذبه ، توفى بصقلية سنة 417هـ/1026م أنظر الذهبى ، تاريخ الإسلام ، دار الغد العربى ، القاهرة ، ط1، 1996م ، 11/223.

المجلس أحد المصادر التى أصقلت فكره الأدبى إذ نعلم أن (ضنا) العامرية إحدى بنات المظفر بن أبى عامر كلفت ابن حزم بأن ينظم لها أبياتا شعرية للتغنى بها [1] ، وهذا يدلنا على أمرين:-

الأول : مدى الارتباط والصلة بين ابن حزم والحاجب المظفر ، حتى أنه أصبح له كلام مع بناته مع ما كان من تشدد فى تلك الفترة على نساء الرؤساء وبناتهن ، ومنعهن من مجالسة الأجانب الذين يدخلون البيت .

الثانى : الشهرة الأدبية التى نالها ابن حزم فى قصر المظفر ، وهو لا يزال دون الخامسة عشر من عمره ، حيث طلبت منه إحدى بنات المظفر أن ينظم لها أبياتا شعرية تتغنى بها . ومن هذه المجالس مجلس أبى عبدالله محمد بن عبدالله بن قاسم صاحب البونت ، ومجلس أحمد بن رشيق صاحب ميورقة اللذان كانا عامران بأصناف الآداب والعلوم ، ولم يقف الأمر بابن حزم عند حد الاستماع والإلمام بما يدور فى هذه المجالس فحسب . بل نراه يشارك فيها بفاعلية ، وليس أدل على ذلك من تصنيفه رسالته فى فضل الأندلس عندما ارتأى صاحب البونت ذلك [2].

وإلى جانب هذه المجالس فقد أثرت الرحلات تاثيرا قويا على فكر ابن حزم وثقافته، وقبل الشروع فى الحديث عن ذلك لابد من تناول أسباب الرحلة بالنسبة للعلماء ، لنقف على

---

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص251 . لم اهتد إلى ترجمة لضنا فيما بين يدى من مصادر .

(2) أنظر : رسالة فى فضل الأندلس ، رسائل 172/2 ؛ ابن الأبار ، الحلة السيراء ، 128/2 ؛ والبونت قرية من أعمال بلنسية ، وميورقة جزيرة فتحها المسلمون سنة 290هـ/902م تطل على البحر الزقاقى ومدينة بجاية من جهة القبلة لمزيد من التفاصيل أنظر الحميرى ، الروض المعطار ، ص56،188 . ومحمد بن قاسم تولى الحكم بألبونت بعد وفاة والده عبدالله سنة 421هـ/1030م ، وتلقب بيمين الدولة ، وكان يقرب الصالحين منه ، وبقى واليا حتى سنة 434هـ/1042م أنظر: ابن حزم ، رسالة فى فضل الأندلس ، ص172 ، هامش(2) ، وأحمد بن رشيق كان أبوه من موالى بنى شهيد ، نشأ فى مرسية ، وانتقل لقرطبة ، وطلب الأدب فبرز فيه ، وبرز فى صناعة الرسائل ، مع حسن الخط ، وشارك فى سائر العلوم ، وقدمه مجاهد العامرى على كل من فى دولته وولاه ميورقة لمزيد من التفاصيل أنظر: ابن الأبار ، الحلة ، 128،129/2.

الأسباب التى دفعت ابن حزم لها هل هى أسباب طبيعية كغيره من العلماء أم أنه كان منفردا حتى فى رحلاته وتنقلاته ، وتتمثل هذه الأسباب فى الآتى :-

أولا : اتساع الدولة الإسلامية التى امتدت من الصين شرقا إلى المحيط الأطلنطى غربا.

ثانيا : وصف الأقاليم والعناية بها ، والتى اعتبرت جزءا من أخبار الفتوح والمغازى . تمهيدا لتطبيق أحكام الشريعة وتسهيلا لمهمة الولاة .

ثالثا : الارتحال لجمع الحديث من أقوال الرواة والنقلة .

رابعا : الباعث الدينى المتمثل فى تأدية فريضة الحج ببيت الله الحرام ، حيث يلتقى الحاج بمعظم علماء وفقهاء الأمصار .

خامسا : الباعث الاقتصادى المتمثل فى التجارة التى يجنى الرحالة من ورائها النفع والكسب المادى (1) .

وبالنظر إلى هذه الأسباب ورحلات ابن حزم نجده لم يكن فيها خاضعا لهذه الأسباب . حتى الباعث الدينى نفسه لم يتحقق لديه بالخروج إلى بيت الله الحرام وقصده بالحج . ولاشك أن ذلك راجع إلى الظروف القاسية التى أحاطت به من اضطهاد وتنكيب سياسى ومصادرة لفكره وآرائه . ومع ذلك فلا يمكن التصديق بأن ابن حزم لم يسقط هذا الفرض عن نفسه بتأديته . فلعله أناب من يضطلع به عنه خاصة وهو صاحب الرأى القائل: "بأن من وجد من يطيعه فيحج عنه ويعتمر بأجرة أو بغير أجرة فقد استطاع السبيل الذى يجب به الحج" ، فى حين أن المالكية لم يروا ذلك استطاعة ولم يوجبوا بذلك حجاً (2).

لقد كانت رحلات ابن حزم إجبارية نتيجة لظروف سياسية ولم تكن بإرادته ، وبالرغم من ذلك فقد حاول أن يستغلها لصالحه وكأنها اختيارية ، ومن ثم أفادته كثيرا فى التعرف على ثقافات جديدة وعلماء جدد وأسلوب جديد فى الجدل والمعيشة ، وهو نفسه يعترف بأثر هذه الرحلات أو قل النكبات السياسية على كثرة مؤلفاته وسيلان ذهنه بقوله : "

(1) أحمد رمضان ، الرحلة والرحالة المسلمون ، دار البيان العربى ، جدة ، (د.ت) ، ص7-14.

(2) أنظر : المحلى ، 27/5 مسألة 815 .

وما ألفنا كتابنا هذا – يعنى التقريب لحد المنطق – وكثيرا من كتبنا إلا ونحن مغربون مبعدون عن الوطن والأهل والولد مخافون مع ذلك فى أنفسنا ظلما وعدوانا لا نسر هذا بل نعلنه "(1).

وتجدر الإشارة بداية إلى أن رحلات ابن حزم وتنقلاته كانت كلها بين مدن الأندلس ولم يغادرها إلى سواها ، ومن ثم فما ذهب إليه البعض بأنه غادرها إلى القيروان معتمدين فى ذلك على نص أورده ابن حزم فى الطوق قائلا : " ولقد سألنى يوما أبوعبدالله بن كليب القيروانى من أهل القيروان أيام كونى بالمدينة " (2) فهو خطأ من وجهين :-

الأول : أن كلمة المدينة فى هذا النص تحريف من الناسخ وأصلها المرية ، وقد تدارك اثنان من محققى الطوق هذا الأمر وصححا هذا التحريف (3).

الثانى : أن الكلمة لو كانت المدينة وليست المرية فالمقصود بها قرطبة ، وقد قرر ابن حزم ذلك بقوله " وكان من ولد عبادة بن الصامت (الصحابى الجليل) قوم يسكنون بالمدينة بباب العطارين عندنا بقرطبة " (4) ، ومن ذلك نقرر أن المواطن القرطبى إذا استخدم كلمة المدينة دون تحديد فالمقصود بها قرطبة .

لقد كانت أول رحلة لابن حزم خارج قرطبة مسقط رأسه إلى المرية Almeria سنة 404هـ/1013م (5) ، ويرجع ذلك إلى طبيعة الحياة الفكرية بها إذ أنها كانت مركزا للجدل والمناظرات بين الفرق الإسلامية وغيرها ، وابن حزم فى ذلك الوقت كان مغرما بالجدل ، وليس أدل على ذلك من منازلته لأعلم اليهود وأجدلهم فى نفس السنة التى رحل فيها إلى المرية كما أسلفنا القول ، ومن ثم كانت المرية أكثر مدن الأندلس ملاءمة لميوله الفكرية ومتعته العقلية فى تلك المرحلة ، أضف إلى ذلك نزعته الأموية التى وجدت إشباعا لها بالمرية ، لما كان يظهره خيران صاحبها من الميل لبنى أمية فى بادىء أمره .

---

(1) أنظر : التقريب لحد المنطق ، رسائل 346/4 ، 347 .
(2) أنظر : ص114 ؛ زكريا إبراهيم ، ابن حزم ، ص39 ؛ محمد أبوزهرة ، ابن حزم ، ص49 .
(3) أنظر تحقيق الطاهر مكى ، ص114 ؛ إحسان عباس ، مقدمة رسائل ابن حزم ، 35/1
(4) أنظر : جمهرة أنساب العرب ، ص354 .
(5) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص247،259 .

خرج ابن حزم فى سنة 407هـ/1016م من المرية إلى حصن القصر Aznalcaza على سبيل التغريب بعد اعتقاله على يد خيران ، بسبب ما نقل إليه بأنه يسعى للقيام بالدعوة الأموية ، وفى سنة 408هـ/1017م ترك حصن القصر إلى بلنسية بعد أن اكتسب ثقافة جديدة ووطد صلته بأهلها (1) ، ويرجع اتجاهه لبلنسية إلى سيطرة النزعة الأموية عليها مثلها فى ذلك مثل شاطبة Gativa والبونت ، التى جذبته إليها باعتباره أحد الدعاة النشيطين والموالين لبنى أمية ، ويبدو أن ذلك هو السبب أيضا فى هجرته لشاطبة والبونت ، فى نفس السنة نراه يغادر بلنسية إلى غرناطة للمشاركة فى صفوف المقاتلين مع عبدالرحمن المرتضى ، ثم رجع إلى قرطبة سنة 409هـ/1019م (2) ، ويبدو أن سبب ذلك هو على بن حمود الذى كان السبب فى اعتقاله على يد خيران ، فلما تولى بعده أخوه القاسم بن حمود الذى كان وادعا حيث أمن الناس فى عهده ، آثر ابن حزم أن يعود إلى قرطبة مسقط رأسه (3) ، وبعد ذلك نراه فى شاطبة حيث قص علينا محاربة مجاهد صاحب الجزائر الشرقية لخيران صاحب المرية ، وكان ذلك سنة 417هـ/1026م ، ويبدو أنه استوطنها قبل هذا التاريخ ، وظل بها حتى سنة 418هـ/1027م ، وهى السنة التى صنف فيها طوق الحمامة أو التى قبلها (4) ، وفى سنة 422هـ/1030م أو بعدها بقليل اتجه إلى قلعة البونت فى عهد صاحبها محمد بن عبدالله بن القاسم ، وكانت لهذه الرحلة أثر عليه فى تزويده بطرق وأساليب جديدة فى التعامل مع أصناف العلوم المختلفة كالتاريخ والحديث والفقه واللغة والبلاغة والشعر وغيرها ، كما أنها منحته الفرصة للإسهام فى تخليد ذكرى علماء الأندلس ومآثر بلدهم . حيث صنف رسالته فى فضل الأندلس بهذه القلعة بناء على رغبة صاحبها .

---

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص247، 259 ، 261 . وحصن القصر أحد حصون بلنسية ، وكان يعرف بقصر بنى خلف بسرطانية ، وبلنسية مدينة مسورة ، ولها خمسة أبواب ، وقد اطبعت بقلة الهم أنظر : العذرى ، نصوص عن الأندلس ، ص64،18،17.

(2) نفسه ، ص261،247 ، ، وشاطبة حصن من حصون مدينة بلنسية تقع شرقى قرطبة أنظر ، ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص285 .

(3) ابن حزم ، ذكر أوقات الأمراء ، رسائل 2/200 .

(4) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص190 ؛ وانظر Asin placios , Abenhazam ,T.1 P.77

(3) ابن حزم ، الفصل ، 2/388 .

(4) نفسه ، 2/390 .

وبعد ذلك اتجه ابن حزم إلى الثغر الأعلى حيث التقى بشيخه أحمد بن محمد الطلمنكى وروى عنه مسند البزار ، واستفاد منه فى الحديث ، وبعض المسائل الخلافية فى الفقه خاصة حكم من مات من أطفال المسلمين والمشركين قبل البلوغ (1) ، ويمكن أن نجعل هذه الرحلة قبل سنة 429هـ/1037م ، وهى السنة التى توفى فيها شيخه الطلمنكى ، ونعرف منه أنه رحل إلى مدينة بجاية وأدرك بها إسماعيل الرعينى زعيم مذهب ابن مسرة فى عصره ، واستفاد من ذلك الكثير عن المعتزلة ومبادئها (2) ، وبعد سنة 430هـ/1038م نرى ابن حزم يحل بجزيرة ميورقة بدعوة من حاكمها أحمد بن رشيق وكانت هذه الرحلة من أعظم رحلاته ، إذ أن حاكم ميورقة أمنه على تحصيل كل ما يريده من العلوم ونشرها ، خاصة الفقه الظاهرى ، ومن ثم يمكن اعتبارها نقطة الانطلاقة الكبرى للمذهب الظاهرى فى حياة ابن حزم . كما أن عصر الموحدين كان نقطة الانطلاقة له بعد وفاته ، وبعد وفاة أحمد بن رشيق سنة 440هـ/1048م غادر ابن حزم ميورقة إلى أشبيلية وذلك لاجتماع المالكية عليه بعد أن قدم أبوالوليد الباجى إلى ميورقة ، وانعدام النصير والمؤيد له ، ولا ندرى ما الداعى وراء حلوله بأشبيلية هل كان بها بعض أصحابه ، أم كان ذلك بدعوة من بعض أهلها ، أم أنها كانت محاولة منه لنشر فكره ومذهبه ، فالمصادر لم تمدنا بمعلومات عن ذلك . بيد أن الواضح للعيان أنه وقع عليه فيها أقصى ما يوقع بالعالم ، إذ أحرقت كتبه علانية بتحريض الفقهاء للمعتضد بن عباد حاكمها . لمهاجمته إياهم ومعارضته لأصول مذهبهم المالكى (3) ، وفى آخر عمره نراه يتجه إلى لبلة بعد أن شعر بالحنين تجاهها وهو فى سن الشيخوخة، وظل بها إلى أن وافاه الأجل سنة 456هـ/1063م (4).

---

(1) ابن حزم ، الفصل ، 2/388.

(2) نفس المصدر ، 2/390. لم نعثر على ترجمة للرعينى ، وإنما عرض ابن حزم لبعض أقواله ومبادئه فى كتابه الفصل.

(3) محمد أبوزهرة ، ابن حزم ، ص546 ؛ وانظر سعيد الأفغانى ، ابن حزم ، ص68،69

(4) ابن سعيد ، المغرب ، 1/355 . وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن ابن حزم أقام بلبلة خمسا وعشرين سنة حتى وفاته . أنظر حسين مؤنس ، الحكومة الأسبانية والهيئات العلمية العربية والأوربية تحتفل بالذكرى المئوية التاسعة لوفاة ابن حزم ، مقال بمجلة العربى ، ربيع أول 1383هـ/أغسطس 1963م ، عدد 57 ، ص22 . وهذا ليس بصحيح لأن معنى ذلك أن ابن حزم رحل إلى لبلة سنة 431هـ/1039م ، وهو لم يغادر ميورقة إلا بعد سنة 440هـ/1048م ، ومنها اتجه لإشبيلية ثم إلى لبلة حيث بقى بقريته منت ليشم حتى وافاه الأجل .

وهكذا فقد كانت لهذه التنقلات دورا مهما فى إكساب ابن حزم خبرات علمية ظهرت فى كتاباته بصورة جلية ما كان له أن يكتسبها لولا أنه خاض غمارها ، فقد تعرف على أصول المعتزلة ومبادئها فى كل من المرية وبجاية ، وصنف طوق الحمامة بشاطبة والذى ترك أثرا واضحا فى الأدب العربى والإنسانى بصفة عامة ، وكتب رسالته فى فضل الأندلس بقلعة البونت ، والتى تعتبر وصفا للحركة الفكرية بالأندلس فى عصره ، وتشكلت أفكاره فى الملل والنحل ، ومن ثم اتجه لتصنيف كتابه الموسوعى (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) ، والذى بدأه بقرطبة بعد سنة 418هـ/1027م . وكتاب (الأصول والفروع) الذى صنفه سنة 420هـ/1029م [1]

وإلى جانب الرحلات فقد لعبت الكتب دورا مهما فى إثراء فكر ابن حزم وتنوعه ، خاصة وأنه كان مكثرا من الاطلاع والسماع معا ، حيث طالع كتبا فى شتى أنواع المعرفة ، يظهر ذلك جليا لمن طالع مصنفاته . وقد أحصيت بعض ما طالعه معتمدا فى ذلك على ما طبع ، وما هو معروف من كتبه والذى يشمل ثلاثة وثلاثين

كتاباً ورسالة من جملة أربعمائة مصنف ، تعدادها ثمانون ألف ورقة ، [2]، ونكتفى فى هذا المقام بالإشارة إلى أهم الكتب التى طالعها فى كل علم من العلوم التى عرفها وأثرها على فكره ومنهجه .

---

(1) أنظر ، الفصل ، 28/1 ؛ الأصول والفروع ، ص210 .

(2) يبلغ عدد الكتب المحصاة أكثر من خمسمائة واثنين وسبعين معظمها من الكتب الكبيرة التى يحتوى كل منها على عدة مجلدات ، ومن ثم فلنا أن نتخيل مجموع الكتب التى طالعها ابن حزم ، وسعة عقله الذى استوعب كل هذا المجموع مع سرعة بديهته فى استحضار ما تحويه ، خاصة إذا علمنا أن هذا الإحصاء يمثل 12/1 من الكتب التى طالعها . عن ذلك أنظر : ابن حزم : طوق الحمامة فى الألفة والألاف ، ص158،122،105،79،33،32 ؛ الأصول والفروع ، ص258،234،221،218،194،193؛ الفصل فى الملل والأهواء والنحل ،1 /145،143،118،72،13،246،177،156 ،261،251، 333،332،263 ،393،334، 408،403، 212،131،217،213، 3/163،160،156،131،11،8 ، جوامع السيرة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د.ت) ، ص163،32،28 ، مراتب الإجماع ، ص178،177، الإحكام فى أصول الأحكام ،1/2،599،439،422،421،409،276،234،225 ، رسائل ابن حزم ،1/3،2،34 /،140،132، 194 ؛ جمهرة أنساب العرب ، ص 109،107،88،80،32،24 ،179، 194،193،188، 294،289،269،268 ،307،306، 310 ؛ الذهبى : سير أعلام النبلاء ، 18/203،202 ، محمد أبوزهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ، ص542،541 ، الطاهر مكى : دراسات عن ابن حزم ،ص252-259 ، 243، ليث سعود : ابن عبدالبر ، ص295،352،332،256،251، عبدالحليم عويس: ابن حزم الأندلسى ، ص152،150.

كان الحديث أول العلوم التى حصلها ابن حزم سماعا ومطالعة ، ومن أهم الكتب التى طالعها فى ذلك صحيحا البخارى ومسلم ، وسنن النسائى ، وأبى داود ، ومسند البزار ، ومسند أحمد بن حنبل ، ومسند ابن أبى شيبة ، ومصنف عبدالرازق ، ومصنف بقى بن مخلد الذى وصفه بقوله : " ومنها مصنفه الكبير الذى رتبه على أسماء الصحابة رضى الله عنهم . فروى فيه عن ألف وثلاثمائة صاحب ونيف . ثم رتب حديث كل صاحب على أسماء الفقه وأبواب الأحكام . فهو مصنف ومسند ، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله فى الحديث وجودة شيوخه . فإنه روى عن مائتى رجل وأربعة وثمانين رجلا ليس فيهم عشرة ضعفاء ، وسائرهم أعلام مشاهير " (1) ، وقد اعترف ابن حزم صراحة بأثر مصنفات بقى بن مخلد فى الحديث عليه حيث قال فى آخر رسالته فى أسماء الصحابة الرواة : " فهذا آخر من روى عنه عليه السلام حديثا فيما ضبطناه ، وضبطه من قبلنا الإمام الحافظ بقى بن مخلد الأندلسى ... " (2) ، ويتضح هذا الأثر جليا فى تخريجات ابن حزم الحديثية بكتابه المشهور (المحلى).

كما طالع ابن حزم كتاب (المختلف والمؤتلف فى أسماء الرجال) لشيخه ابن الفرضى ، والذى استفاد منه كثيرا فى الجرح والتعديل ، وكتابا (التمهيد والاستذكار) لصاحبه ابن عبدالبر النمرى ، اللذان استفاد منهما فى فقه الحديث استفادة جعلته يصف أحدهما وهو التمهيد بأنه كتاب لا يعلم مثله فى فقه الحديث(3).

وقبل أن ننهى الكلام عن مطالعات ابن حزم فى الحديث لابد أن نقرر أنه بالرغم من معرفته لمعظم المصنفات الخاصة بهذا الشأن فى عصره وقبله ، فإنه لم يعرف سنن ابن ماجة ، ولا الجامع الصحيح لأبى عيسى الترمذى ، إلا فى فترة متأخرة من حياته ، ومن ثم فقد نبه هو نفسه على ذلك فى رسالته الباهرة ، وقد تقصينا ذلك فى كتابنا : " شبهات وأباطيل روجت ضد السادة الظاهرية " (4) ، مما يؤكد على أن ابن حزم عرف سنن الترمذى قبل وفاته ، وأنه

---

(1) أنظر : رسالة فى فضل الأندلس ، رسائل 178،179/2 ؛ الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، 202،203/18.

(2) تحقيق ، أحمد حسن جابر ، هدية مجلة الأزهر ، جمادى الآخرة ، 1413هـ ، ص61

(3) ابن حزم ، رسالة فى فضل الأندلس ، 179،180/2 .

4 لم يطبع بعد .

استدرك تجهيله للترمذى فى كتابه الإيصال ، وهذا الذى ذكرناه نستدرك به ما أخطأنا فيه – بكتابنا ابن حزم الظاهرى وأثره فى المجتمع الأندلسى – من التماسنا العذر لتجهيل ابن حزم للترمذى بكلام الذهبى الذى جاء فيه ، أن سنن ابن ماجة ، وسنن الترمذى لم يدخلا الأندلس إلا بعد وفاة ابن حزم ، وهذا نص ما ذكرناه فى كتابنا : " شبهات وأباطيل روجت ضد السادة الظاهرية" من استدراك : هذا الكلام الذى دافع به الذهبى عن ابن حزم ، ومن قبله ابن القطان تلقفه البعضليشنعوا على ابن حزم ، وليؤكدوا أنه جهل الترمذى وأنه مات ولم يعرف كتابهالجامع وهذا وهم واضح وباطل بين البطلان للآتى:

أولا : أن ذكر الترمذى كان مشهوراً بالأندلس حتى على ألسنة مشايخ ابن حزم وفى كتبهم ومنهم العلامة ابن الفرضى المالكى شيخ ابن حزم والذى ذكر الترمذى ونبه على قدره فى كتابه " المؤتلف والمختلف " (1).

ثانيا : أن الكتاب كان يدرس بالأندلس فى أواخر القرن الرابع الهجرى والذى شهد مولد ابن حزم ، وممن درسه يحيى بن محمد الجيانى (توفى 390هـ) وعن الجيانى روى ابن عبدالبر جامع الترمذى من طريقه.

ثالثا : أن ابن عبدالبر ذكر الترمذى فى كتابه العظيم التمهيد ، وابن حزم قرظ هذا الكتاب ، فهل يا ترى رغم مدح ابن حزم لهذا الكتاب من الممكن أن يكون قد غفل عن ذكر الترمذى فيه ؟ربما يكون ذلك ، وربما يكون وقف عليها ، ومن ثم غير رأيه فيه بعد تجهيله له ،

1 . أشار إلى هذا الكتاب كل من ابن حزم فى رسالته فى فضل الأندلس ضمن مجموعة رسائله بتحقيق العلامة إحسان عباس وعده من الأعمال الكبيرة التي قدمها الأندلسيون وتفوقوا بها على أهل المشرق ، وأنه في أسماء الرجال وأن الحافظ عبد الغني الأزدي المصرى لم يبلغ عند هذا المعنى إلا كتابين ، وبلغ أبو الوليد نحو الثلاثين ، كما وضّح ابن حزم أنه لا يعلم مثله في فنه البتة . وذكره الحميدي فى جذوة المقتبس، والضبى فى بغية الملتمس ،والذهبي فى سير أعلام النبلاء وفى تذكرة الحفاظ ، كما ذكره،وقد ذكره ابن بشكوال فى صلته بقوله : (وجمع في المؤتلف والمختلف كتاباً حسناً).وللأسف هذا الكتاب الفريد فى حكم المفقود فى حدود علمى.

وهو ما سنوضحه لاحقا بتفصيل بعد طرحنا للتسلسل التاريخى لكتب الإمام إن أنسأ الله لنا فى العمر.

رابعا : إذا فرضنا جدلا أن ابن حزم لم يقف على كتاب شيخه ابنالفرضى الذى ذكر فيه الترمذى ، ولا على ذكر الترمذى فى كتاب صاحبه ابن عبدالبر فما الداعى لعدم تجهيل ابن حزم للترمذى فى كتابه المحلى؟ثم ما الداعى لجعله من الحفاظ الثقات فى رسالته الباهرة؟ حيث قال حرفيا : " وأما الحفظ فهو ضبط ألفاظ الحديث ، وتثقيف سوادها فى الذكر ، والمعرفة بأسانيدها ، وهذه صفة حفاظ الحديث كالبخارى ومسلم والترمذى .." (1).

وفى التاريخ طالع (تاريخ الرسل والملوك) لابن جرير ، وكتاب (النسب) للقاضى محمد بن صالح بن أم شيبان ، الذى وصفه بأنه لم يؤلف مثله استيعابا وكمالا (2) ، ولعله كان أحد الأسباب التى وجهته لدراسة الأنساب والتصنيف فيها ، كما طالع (السيرة النبوية) لابن إسحاق ، وكتاب (التاريخ والمغازى) للواقدى ، وكتاب (التاريخ الكبير فى أخبار أهل الأندلس وملوكها) لابن حيان ، الذى استفاد منه فى رسالتيه (نقط العروس ، وذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس) (3).

وكان لكثرة مطالعات ابن حزم التاريخية تأثير عليه فى توسيع دائرة التاريخ بضم الأنساب إليه ، فضلا عن اتجاهه لتنقية التاريخ مما علق به من خرافات وأكاذيب سابقا ابن خلدون فى نقد الخبر التاريخى والتوصل إلى فلسفة التاريخ على ما بيناه فى كتابنا : " ابن حزم الظاهرى وأثره فى المجتمع الأندلسى" ، وفصلناه تفصيلا فى كتاب جديد لنا سيصدر بمشيئة الله تعالى قريبا تحت عنوان : " التدوين التاريخي عند ابن حزم الظاهرى".

وبعد أن تعمق ابن حزم فى الحديث والتاريخ اتجه لدراسة الفقه دراسة دقيقة عميقة ، بعد أن كان قد درس المبادى الفقهية بجانبهما على يد شيخه أحمد بن الجسور ، فبدأ بالفقه المالكى وطالع كتبه المشهورة حتى عصره ، ومن ثم فهو القائل ردا على مقلدى المالكية فى

---

1 أنظر : الرسالة الباهرة ، تحقيق محمد صغير حسن معصومى ، بدون دار طبع ولا تاريخ نشر ، ص50

2 أنظر : جمهرة أنساب العرب ، ص32 .

3 ابن حزم ، رسالة فى فضل الأندلس ، رسائل 2/184 .

عصره : " فلعمرى ما لشيوخهم ديوان مشهور مؤلف فى نص مذهبهم إلا وقد رأيناه ولله الحمد كثيرا " [1] ، ومن أشهر الكتب التى طالعها (الواضحة) لعبدالملك بن حبيب ، (والعتبية) لتلميذه العتبى ، (والكافى فى الفقه على مذهب مالك وأصحابه) لابن عبدالبر فى خمسة عشر جزءا ، (والمنتخب) لمحمد بن يحيى بن عمر بن لبابة ، الذى وصفه ابن حزم بأنه من أنبل الكتب فى جمع روايات المذهب المالكى[2] ، وكتاب (مسائل الخلاف) للأبهرى الصغير فى نحو مائتى جزء ، وكتاب (تعليق المختصر) مثله ، وكتاب (المعتمد فى الخلاف) لأحمد بن محمد القزوينى فى مائة جزء [3] .

وبعد مطالعات كثيرة لكتب المذهب المالكى لم يجد فيه ابن حزم ما يوائم فكره فتحول عنه إلى الشافعى ، خاصة بعد أن قرأ كتاب الشافعى فى (إبطال الاستحسان) الذى يعتبر مصدرا من مصادر الفقه الشافعى ، وكتابه (الأم فى الفقه) ، ولكن نظرا لقلة الشافعية بالأندلس بسبب السيطرة المالكية . فقد واجه ابن حزم صعوبة فى تحصيله من الشيوخ والكتب ، الأمر الذى دفعه إلى مطالعته من كتب من اشتهر بالاختيار فى الفقه مثل (بقى بن مخلد) الذى وصفه بالاختيار وعدم التقليد ، وأن تآليفه كانت قواعد للإسلام [4] ، ولا نعرف من كتبه سوى تفسير القرآن ، ومصنفه فى الحديث ، ومصنفه فى فضائل الصحابة والتابعين ، وهى فى حكم المفقود . كما طالع كتب المتقدمين عنه من الشافعية مثل (قاسم بن محمد) الذى وصف تآليفه بالحسن ، ولا نعرف منها سوى كتاب (الإيضاح فى الرد على المقلدين) ، وهو مفقود ، وكان لهذا الكتاب أثره الكبير على ابن حزم فى نبذ التقليد وشن حملة شعواء على المقلدين ، كما يتضح من كتاباته . خاصة (المحلى ، والإحكام) ، كما طالع كتب

(1) أنظر : رسالتان له أجاب فيهما عن رسالتين ، رسائل 91/3 .

(2) أنظر : رسالة فى فضل الأندلس ، رسائل 181/2 .وعن ابن لبابة أنظر الضبى ، بغية الملتمس ، ص144 .

(3) أنظر : رسالتان له ، رسائل 91/3 . والأبهرى الصغير هو محمد بن عبدالله ، ولد سنة 287هـ/900م ، وتوفى سنة 375هـ/985م ، والقزوينى هو أحمد بن محمد بن زيد مات بعد سنة 365هـ ، وصنف فى المذهب المالكى والخلاف . أنظر ابن النديم ، الفهرست ، ص280.

(4) أنظر : رسالة فى فضل الأندلس ، 179/2 ؛ محمد أبوزهرة ، تاريخ المذاهب الإسلامية ، ص541 .

(ابن آمنة الحجارى) الشافعى ، ولا نعرف منها سوى كتابه (أحكام القرآن) وهو مفقود [1] ، وإلى جانب كتب الشافعية فقد زودته كتب داود بن على الأصفهانى بمعلومات هامة عن المذهب الشافعى . فقد كان يعرض للكثير من آراء الشافعى فيها ، لشدة إعجابه به وتعصبه له . حتى إنه صنف فى فضائله والثناء عليه كتابين [2] . الأمر الذى دفع فقهاء الشافعية إلى اعتباره واحد منهم وترجموا له فى طبقاتهم [3].

وبعد ما يقرب من اثنتى عشرة سنة قضاها ابن حزم فى مطالعة لكتب المذهب الشافعى ، ومدافعة عنه ضد خصومه ، نراه ينتقل إلى المنهجية الظاهرية ، والذى كان المذهب الشافعى مقدمة لها باعتباره مذهبا يعتمد على النصوص فى معظمه ويعززها ، باستثناء أوجه خلاف بسيطة بينه وبين المذهب الظاهرى ، والتى ياتى فى مقدمتها تعويله على القياس الجلى كأحد الأصول ، وهو ما رفضه أهل الظاهر ، ومن ثم فالمذهب الشافعى يأتى بعد المذهب الحنبلى فى درجة القرب للمذهب الظاهرى فى جزئية القياس ، وهو ما سيتضح عند الحديث عن المذهب الظاهرى من هذا الفصل .على أية حال فإن تحول ابن حزم فى هذه المرة لا يعتبر تحولا مذهبيا بقدر ما هو بلوغا للمنهجية التى تعزز النصوص أكثرفأكثر – ولا يعتمد على أى ضرب من ضروب الرأى – هى المنهجية الظاهرية .

وقد اعتمد ابن حزم فى مطالعاته الظاهرية على كتب داود بن على إمام أهل الظاهر ، الذى أحصى له ابن النديم مائة وخمسين كتابا منها تسعة تكون إحدى عشرة ألفا وثمانمائة ورقة ، وكلها للأسف مفقودة [4] ، ومن هذه الكتب كتاب (الأصول) الذى تعرض فيه

(1) ابن حزم ، مصدر سابق ، 2/181،179،178 ؛ وانظر الضبى ، بغية الملتمس ، ص153 . وعن ابن آمنة أنظر الضبى ، نفس المصدر ، ص536 ترجمة 1516 ، ولم يزد عن قوله فقيه شافعى له كتاب فى أحكام القرآن .

(2) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، 2/255 .

(3) تاج الدين السبكى ، طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق محمود الطناحى وعبدالفتاح محمد الحلو ، مطبعة عيسى البابى الحلبى ، القاهرة ، ط1 ، 1383هـ/1964م ، 2/284-293

(94 أنظر : الفهرست ، ص299-301 .

لأصول المذهب الظاهرى ، وكتاب (الذب عن السنن والأحكام والأخبار) فى ألف ورقة ، وكتاب (الإجماع) ، وكتاب (إبطال التقليد) ، وكتاب (إبطال القياس) وغيرها .

أعجب ابن حزم بمعظم كتب داود إعجابا شديدا حتى إنه تبنى الكثير من الآراء المدونة بها وأثبتها فى كتبه الفقهية . خاصة المحلى ، وبالرغم من ذلك فقد خالفه ابن حزم فى بضع وستين مسألة بعضها راجع إلى الخلاف فى فهم النص ، والآخر إلى الخلاف فى صحة حديث وضعفه ، وسبب ثالث هو الخلاف فى النسخ هل الحديث المعتمد عليه فى الفتوى هو الناسخ أم المنسوخ ، ورابع يتمثل فى وصول أحاديث لابن حزم لم تصل لداود باعتبار الأول متأخرا عن الثانى [1] ، وهذا الخلاف بصفة عامة يرجع إلى المنهجية الظاهرية التي تنبذ التقليد وتنفر منه ، وتدعو إلى الاجتهاد طالما أن هناك نصوصاً من القرآن والسنة تؤيد ذلك . وابن حزم يوضح ذلك جليا خاصة علاقته بداود الظاهري في قوله : " ولسنا نرضي عمن يغضب لنا إنما نرضي عمن يغضب للحق، ولا نسر بمن ينصر أقوالنا ، وانما نسر بمن ينصر الحق حيث هو ...ولا يجهل علينا جاهل فيظن اننا متبعون الإمام أبي سليمان داود بن علي . إنما أبو سليمان شيخ من شيوخي ومعلم من معلمينا . إن أصاب الحق فنحن معه اتباعا للحق ، وإن أخطأ اعتذرنا له ، واتبعنا الحق حيث فهمناه " [2] ، ولقد كان لهذه المنهجية نفس الأثر على داود ابن علي إمام المذهب الذي خالف الإمام الشافعي وصنف في ذلك كتابا [3] ، بالرغم من إفراطه في الإعجاب به والتعصب له .

ومن الكتب التي قرأها ابن حزم في المذهب الظاهري كتب أبي الحسن ابن المغلس كتاب (المفصح ، المزني ، المنجح ، احكام القران ، الطلاق ، الولاء ، الموضح) [4] ، وكل

---

(1) عن بعض المسائل التى خالف فيها ابن حزم داود أنظر المحلى ، مسائل رقم 299 ، 349 ، 353 ، 467 ، 480 . وقد جمعنا هذه المسائل بفضل الله تعالى فى رسالة مفردة وسمناها بـ : "المسائل الخلافية بين ابن حزم الظاهرى وداود بن على الظاهرى " ، وستجد طريقها للنشر قريبا بمشيئة الله.

(2) نقلا عن عبد الحليم عويس ، ابن حزم ، ص344 ، 345 .

(3) ابن النديم ، الفهرست ، ص 301 .

(4) نفس المصدر والصفحة ؛ وانظر الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، 194/18.

هذه الكتب مفقودة ، وكتب المنذر ابن سعيد البلوطي ومنها (أحكام القران ، الأدلة علي استنباط الأحكام من كتاب الله ، الإبانة عن حقائق أصول الديانة) (1) وهي مفقودة .

ولم يقف الامر بابن حزم في مطالعته الفقهية عند هذا الحد بل نراه يطالع فقه الأوزعي وأبا حنيفة وتلاميذه والحسن البصري وابن أبي ليلة وابن شبرمة وعثمان البتى وابن حنبل ...وغيرهم من أئمة السلف والتابعين الذين عرض لهم في كتابه المحلي وتأثر بالكثير من آرائهم .

وقد اقتضت المنهجية الظاهرية أن يحيط ابن حزم باللغة العربية وآدابها باعتبارها أحد الأصول التي يعتمد عليها في الفتوى والاستنباط ؛ ومن ثم فقد عكف على معظم كتب اللغة وطالعها بدقة وإتقان ، الأمر الذي انعكس عليه في كتاباته المتنوعة وكأنه فقيه من فقهاء اللغة ، ومن الكتب التى اطلع عليها وكان لها تأثيرها القوى عليه (المعزى ، حيلة ومحالة ، الهشاشة والبشاشة) لأبى زيد الأنصارى ، (ومختصر العين فى علم اللغة ، الواضح فى النحو) للزبيدى ، (والكتاب ، أمثلة الأسماء من الثلاثى والرباعى والخماسى السداسى) لسيبويه(2).

وقد اهتم ابن حزم بالشعر وصنف فيه ، وذلك من خلال كتابه (دعوة الملل فى أبيات المثل) الذى يضم أربعين ألف بيت من الشعر (3) فضلا عن ما دونه فى كتاب (طوق الحمامة) من شعر يقدر بسبعمائة بيت شعر ، وقد كان أكثر من ذلك لولا أن يد الناسخ تطرقت للكتاب بالحذف كما بينا فى كتابنا : " ابن حزم الظاهرى واثره فى المجتمع الأندلسى"، ومن أشهر الدواوين التى اطلع عليها ديوان (النابغة الذبيانى ، جرير ، الفرزدق ، لبيد بن ربيعة ، المتنبى ، الحسن بن هانىء ، ابن دراج القسطلى ، الشاعر الطليق الذى وصفه ابن حزم بأنه (أشعر أهل الأندلس فى زمانه) ، ابن الرومى(4) .

---

(1) ابن حزم ، رسالة في فضل الاندلس ، رسائل 179/2.

(2) أنظر : ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص373 ؛ رسالة مراتب العلوم ، رسائل 66،67/4 ؛ رسالة التلخيص ، رسائل 164/3 ؛ الفصل ، 204/3 .

(3) الفيروزآبادى ، البلغة فى أئمة اللغة ، تحقيق محمد المصرى ، مطبعة جامعة دمشق ، 1972م ، ص148 .

(4) أنظر : ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص79 ؛ التقريب ، ص355 ؛ رسالة فى فضل الأندلس ، رسائل 187،188/2 .

وقرأ ابن حزم مصادر الديانتين اليهودية والنصرانية وكان ذلك قبل عام 404هـ/1013م ، وقد وجد نفسه مضطرا لتعلم العبرية للوقوف على أصول الكلمات المعربة بالتوراة والتلمود وغيرهما من كتب اليهود ، وقد أجاد العبرية يشهد على ذلك تصحيحه فقرة فى الإنجيل المكتوب باللاتينية ، مقارنة بالنص المكتوب بالعبرية (1) ، أما ما ذكره من قوله : " ولقد أخبرنى بعض أهل البصر بالعبرانية " (2) فلا يناقض معرفته بالعبرية لأن ذلك كان قبل تعلمه لها أو أثناء تعلمه . وكتابه (الفِصل) لم يظهر فى شكله الحالى مرة واحدة بل على مراحل متعددة .

كما اضطر ابن حزم إلى تعلم اللاتينية ؛ لأن أصول النصرانية كتبت بها وكانت لغة التخاطب بين النصارى ، ومن الوسائل الناجحة التى يتكىء عليها ابن حزم فى مناظراته أمام النصارى ، وقد أجادها يشهد على ذلك قوله : " ودار بلى بالأندلس موضع معروف باسمهم بشمالى قرطبة ، وهم هنالك إلى اليوم على أنسابهم ، لا يحسنون الكلام باللطينية (اللاتينية) لكن بالعربية فقط نساؤهم ورجالهم " (3) فقوله (لا يحسنون) يدل على معرفته بهذه اللغة حتى استطاع الحكم على درجة إجادتهم لها . ومن أشهر الكتب التى قرأها فى هذا الشأن (التوراة ، الزبور ، كتاب شعياء ، التلمود ، الأناجيل الأربعة ، كتاب الوحى والإعلان ليوحنا سبذاى ، الرسائل الخمسة عشر لبولس ... وغير ذلك) (4) .

كما درس ابن حزم الفرق الاسلامية دراسة متقنة وطالع فيها العديد من الكتب مثل كتاب (الامامة لأبي جعفر السمناني ، الميزان لهشام ابن الحكم الرافضي ، المسائل العسكرية لأبي هشام عبد السلام الجبائي ، كتابي المجالس والموجز لأبي الحسن الاشعري ...) والتي حاورها في كتابيه (الفصل في الملل و الأهواء والنحل ، الأصول والفروع) (5) .

---

(1) عن ذلك أنظر : الفصل ، 1/66،67 ؛ رسالة فى الرد على ابن النغريلة اليهودى ، رسائل 3/64،55 .

(2) أنظر : الفصل ، 1/168 .

(3) أنظر : جمهرة أنساب العرب ، ص443 .

(4) ابن حزم ، الفصل ، 1/145،72، 251 ،252 ،261.

(5) ابن حزم ، الفصل ، 1/393 ، 408 ،2/11 ، 3/11 ،163 .

ودرس التصوف دراسة نقدية ليقاوم القول بالباطن الذي ازدهر على أيدي الشيعة بالأندلس في عصره ، وطالع ابن حزم فيه الكثير من الآراء دون أن يشير الي كتبهم باستثناء كتاب (تفضيل الصالحين من الناس علي الملائكة) لابن أبي عيسي (أحد معاصريه بالأندلس) ، وما دون ذلك اكتفى بالإشارة إلي أسمائهم فحسب مثل (ابن شمعون ، أبي حاضر النصيبي ، أبي الصباح السمرقندي ، أبي شعيب القلال...) (1).

ودرس الجغرافيا والتي أفادته في دراسته التاريخية وفي نقده لنصوص التوراة ، والمطالع لأقواله عن المساحات بين المدن ومنابع الانهار عند نقده للتوراة بكتابه (الفصل) يري قوة حسه الجغرافي الذي ينم عن مطالعات كثيرة ، بالرغم من أن كتبه التي بين أيدينا لم تفصح سوى عن بضعة كتب في هذا الشان وهي (مسالك الأندلس ومراسيها وأمهات مدنها لأحمد ابن محمد الرازي ، ومسالك أفريقيا وممالكها لمحمد ابن يوسف الوراق ، وجغرافيا لبطليموس)(2).

ودرس الطب والصيدلة والفلسفة والمنطق والعدد والهندسة ، ومن اشهر ما اطلع عليه في الطب والصيدلة كتب يحيى بن اسحاق الوزير التي وصفها بانها رفيعة حسان ، كتب محمد بن الحسن المذحجي ، وكتب ابن الهيثم في الخواص والسموم والعقاقير والتي وصفها بأنها من أجل الكتب وأنفعها ، وكتاب التصريف لمن عجز عن التاليف لأبي القاسم خلف الزهراوي الذي وصفه بقوله : " لئن قلنا إنه لم يؤلف في الطب اجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع لنصدقن "(3) .

---

(1) انظر نفسه ، 166/3؛ الأصول والفروع ، ص258.ولم أعثر على تراجم لما ذكرناه بأعلاه فيما بين يدي من مصادر.

(2) انظر رسالة في فضل الاندلس ، رسائل ، 172/2 ،173 ، 175 ؛ الفصل ، 143/1 . وعن الرازى والوراق أنظر بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسى ، ص307،197،196.

(3) انظر : رسالة في فضل الاندلس ، 2/ 185 . وعن يحيى بن إسحاق والزهراوى أنظر الضبى ، بغية الملتمس ، ترجمة رقم 715 ، 1460.

واطلع في الفلسفة على رسائل إخوان الصفا ، وكانت أحد الأسباب التي دفعته لمهاجمة الباطن وتبني القول بالظاهر لما فيها من رموز ومخالفات للأمور الظاهرة المعروفة من الدين ، وكتب أرسطاطاليس وجالينوس وكتاب إيساغوجي (المدخل) لفرفوريوس [1] ، وكانت هذه الكتب دافعا لتعلمه اللغة اليونانية ومساعدة له لتبسيط المنطق ، وكتاب العلم الإلهى لمحمد بن زكريا الرازى ، وكتب ورسائل محمد بن الحسن المذجحي ، وكتب الكندي التي نقدها ابن حزم في رسائله لما فيها من مخالفات للعقيدة والشريعة [2].

وفى الهندسة والعدد قرأ كتاب (إقليدس) فى علم العدد ، كتاب (المجسطى) لبطليموس ، كتاب (الأرثماطيقى فى طبائع العدد) لأندروماخس ، كتاب (المساحة المجهولة) لأحمد بن نصر [3] ، وقد هيأه ذلك للوقوف على تركيب الأفلاك ودورانها ، ومعرفة الكسوفات وعروض البلاد وأطوالها والمد والجزر ومنازل الشمس والقمر ، والتوجه لدراسة علم الهيئة [4] ، ومن ثم استطاع أن يتوصل إلى نظريات فلكية أيدتها الأبحاث والاكتشافات الحديثة مثل كروية الأرض ... إلى غير ذلك مما فصلناه بكتابنا ابن حزم الظاهرى وأثره فى المجتمع الأندلسى .

الجدير بالذكر أن تحول ابن حزم للمذهب الظاهرى كان قبل سنة 418هـ/1027م ، وهى السنة التى صنف فيها طوق الحمامة ، أو التى تليها حيث روى المقرى نصا فحواه أن ابن حزم وصاحبه ابن عبدالبر كانا يمران بسكة الحطابين بإشبيلية فلقيهما شاب حسن الوجه

---

(1) ابن حزم ، الفصل ، 3/271،253 ، وانظر ، التقريب ، ص104 ؛ الطاهر مكي ، دراسات عن ابن حزم ، ص243 ، وفرفريوس : من مدينة صور شرح كتب ارسطاطاليس وكان بعد الاسكندر وجالينوس ، انظر ابن النديم ، الفهرست ، ص349 .

(2) انظر الرد على الكندي الفيلسوف ، رسائل 4/363 ، 385 ، وعن الكندي ومصنفاته انظر ابن النديم ، السابق ، ص351 –359 .

(93 ابن حزم ، رسالة مراتب العلوم ، رسائل 4/69 ؛ رسالة فى فضل الأندلس ، 2/186 ؛ رسالة التوقيف ، رسائل 3/132 . وأندروماخس حكيم كان أيام الإسكندر الأكبر لمزيد من التفاصيل أنظر على بن يوسف القفطى ، أخبار العلماء ، مطبعة السعادة ، مصر ، ط1 ، 1326هـ ، ص52.

(4) أنظر : ابن حزم ، رسالة التوقيف ، رسائل 3/132 ؛ رسالة مراتب العلوم ، رسائل 4/69 .

، فقال ابن حزم هذه صورة حسنة . فرد عليه ابن عبدالبر لم نر إلا الوجه لعل ما سترته الثياب ليس كذلك ، فارتجل ابن حزم أبياتا تضمنت بيتا يشير صراحة إلى ظاهريته وهو :-

ألم تعلم أنى ظاهرى وأننى على ما أرى حتى يقوم دليل .

أورد المقرى هذه القصة وأسبقها بقوله : " قال ابن حزم فى طوق الحمامة " (1) وبالرغم من عدم ورودها فى نسخة الطوق الحالية فيمكننا أن نثق فى كلام المقرى إذا علمنا أن النسخة التى بين أيدينا ليست كاملة باعتراف الناسخ نفسه ، الذى حذف أكثر أشعارها تحسينا لها وتصغيرا لحجمها (2).

لم يتم تحول ابن حزم للمذهب الظاهرى مرة واحدة ، وإنما كان على مراحل متفاوتة:-

أولها : مطالعته كتب بقى بن مخلد وغيره من مؤسسى مدرسة الحديث الأندلسية ، التى تأثر بها ، وتبنى مبادئها الداعية إلى نبذ التقليد والاعتماد على الاختيار من النصوص دون تعصب لأحد ، ومن ثم بدأ يغير أفكاره المتعصبة للمذهب الشافعى.

ثانيها : دراسته لبعض الكتب التى اعترضت على الفقه الشافعى فى عدة قضايا ، مثل اعتراض القاضى محمد بن عبدون القيروانى على الشافعى ، وردود القاضى عبدالله بن أحمد بن طالب التميمى عليه أيضا (3) التى كان لها الأثر الكبير فى الانصراف عن الفقه الشافعى بعض الشىء إلى ما هو أكثر تعزيزا للنصوص ، وهو مذهب أهل الحديث ، الذى كان مقدمة مباشرة لتحوله إلى أهل الظاهر . لكراهية المحدثين للقياس وتحذيرهم من استعماله مما مهد له إنكار القياس . خاصة بعد أن قرأ كتاب إبطال الاستحسان للشافعى ، ووجد أن الأدلة التى ساقها لإبطاله تصلح لإبطال القياس .

---

(1) أنظر : نفح الطيب ، 288/2 ، والبين رقم 4 من المقطوعة الشعرية .

(2) أنظر : طوق الحمامة ، ص336 .

(3) ابن حزم ، رسالة فى فضل الأندلس ، رسائل 177/2 . وابن عبدون كان حافظا لمذهب أبى حنيفة كاتبا موثقا للشروط والوثائق ، تولى القضاء بالعراق ، والتميمى أحد علماء المالكية تولى قضاء القيروان مرتين فى عهد دولة الأغالبة ، وكان فطناً جيد النظر أنظر : الخشنى : طبقات علماء أفريقية : تحقيق محمد زينهم ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ط1 ، 1413هـ/1993م ، ص51،17،16-53.

ثالثها : مطالعة كتب داود بن على الظاهرى ، التى وجد فيها ما يوافق فكره ومنهجه ، خاصة وأن داود اعتمد فى نفيه للقياس على كتاب الشافعى إبطال الاستحسان ، الأمر الذى زاد ابن حزم تعلقا بداود .

رابعها : بدأ ابن حزم يبحث عن كل من اشتهر بالقول بالظاهر فى الأندلس ، فلم يسعفه القدر سوى بشيخه أبى الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت ، الذى درس على يديه المذهب ، وكان أمنيته التى ينشدها فهو ذو الفكر الحر الذى يعتمد على الاختيار ، ولا يرى التقليد ، ويأخذ بالنصوص وبالظاهر ، فضلا عن كونه متواضعا يرى أن العلم لايقف عند حد بل هو من المهد إلى اللحد (1) ، ومن ثم فلا غرو أن يذكره ابن حزم فى غير موضع من كتبه بالفضل والخير ، واصفا إياه بأنه أحد الأئمة المجتهدين المعدودين فى عصره (2) ، ولعل خلو الأندلس من فقهاء ظاهريين من طراز أبى الخيار ، كان أحد الأسباب التى دفعت ابن حزم لتمنى الهجرة للمشرق (3) . ليلتقي بعلماء المدرسة الظاهرية بالعراق ، ويحيا فى الموطن الذى شهد مولد المذهب على يد مؤسسه داود بن على الأصفهانى .

(1) الذهبى ، تاريخ الإسلام ، 334/11 ؛ وانظر ، محمد أبوزهرة ، ابن حزم ، ص300 .

(2) أنظر : رسالة التلخيص ، رسائل 144/3 ؛ الإحكام ، 95/2 ؛ أصحاب الفتيا من الصحابة ومن بعدهم ، ص88 .

(3) أنظر : ديوان ابن حزم ، ص94 فقرة 2 بيت رقم 2 .

المبحث الرابع

القيمة العلمية لمصنفات ابن حزم:

كان ابن حزم من أكثر العلماء تصنيفا وتدوينا ، فقد صنف فى العلوم العقلية والنقلية ، والأصول والفروع ، وأحصى له ولده أبورافع الفضل مؤلفاته فى الفقه والحديث والأصول والنحل والملل والتاريخ والنسب والأدب والرد على المعارضين وغير ذلك فبلغت نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة (1) ، وكذا فقد أحصاها ابن مرزوق اليحصبى فبلغت ثمانين ألف ورقة (2) ، وقد ورد عن أبى بكر الطرطوشى أنه جلس مع أبى سليمان المصعب على تواليف والده ابن حزم كلها مع المختصين من أصحابه ، وأحصوا المدة التى يمكن نسخ جميعها لناسخ تكون صناعته لا يفتر عن النسخ إلا فى وقت وضوء وصلاة وطعام، وما شابه ذلك فوجدوا مدة ذلك ثمانين سنة (3) ، ومن هذا الكلام نخلص بالآتى :

أولا : مدى الجهد الذى قام به ابن حزم حيث صنف أربعمائة مصنف فى مدة لا تتجاوز الثمانية والثلاثين عاما ، إذ إنه بدأ فى التصنيف وهو ابن أربع وثلاثين عاما سنة 418هـ/1027م ، وكان طوق الحمامة أول مصنفاته .

ثانيا : أن ابن حزم قد ترك أثراً واضحاً على العلماء بعده حتى أنهم كانوا يجتمعون على مؤلفاته ، ويقارنون بينها كتراث ضخم وبين عقلية صاحبها الذى استطاع أن ينتهى منها فى وقت وجيز على كثرتها وضخامتها ، ولذا فلا غرو أن يعتبره أحد الباحثين المحدثين بداية المرحلة الأخيرة فى تاريخ الفكر العربى والتى تمثل ذروة التفكير العقلى والاجتماعى ، الذى يبدأ به وينتهى بابن خلدون (4).

---

(1) نقلا عن صاعد ، طبقات الأمم ، ص98 .

(2) نقلا عن إحسان عباس ، أخبار وتراجم أندلسية ، دار الثقافة ، بيروت ، ط1 ، 1963م ، ص52 .

(3) نقلا عن محمد إبراهيم الكنانى ، مؤلفات ابن حزم ، ص86 .

(4) عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربى إلى ايام ابن خلدون ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1386هـ/1966م ، ص25 .

ويمكن أن نجمل الأسباب التى دفعت ابن حزم لإخراج هذا التراث الضخم المتنوع فى الآتى :-

أولا : نشر العلم وتبيينه للناس استنادا على العهد الذى أخذه الله على العلماء بعدم كتمه[1] .

ثانيا : إحياء المذهب الظاهرى من رقدته بتصنيف الكتب فى أصوله (كالإحكام ، وذو القواعد ، والإيصال ، والمجلى ، والمحلى ، والإجماع ...) .

ثالثا : تسهيل تناول العلم وتقريب حفظه لأهله بتصنيف الكتب المصغرة ، واختصار الكبيرة ، وتبسيط المصطلحات ، مثل (كتاب التقريب لحد المنطق ، والنبذة الكافية الذى هو اختصار للإحكام ، وجوامع السيرة ، ونقط العروس ، وأمهات الخلفاء وغيرها) وهو فى هذه المصنفات واقع تحت تأثير مذهبه الظاهرى فى التبسيط مع التدقيق لتسهيل الحفظ.

رابعا : رغبة تلاميذه وأصحابه فى أن يصنف لهم كتبا فيما يعرض لهم من مسائل مثل (كتاب المحلى الذى صنفه بناء على رغبة بعض أصحابه وتلاميذه ، وطوق الحمامة التى صنفها بناء على طلب بعض أصحابه ، ورسالة التلخيص التى جاءت ردا على أسئلة وردت عليه من قبل جماعة من أصحابه) [2] .

خامسا : الدفاع عن المذهب الظاهرى والرد على خصومه مثل (كتابه فيما خالف الحنفية والمالكية والشافعية جمهور الصحابة ، وكتاب فيما خالف فيه المالكية الطائفة من الصحابة ، والإظهار لما شنع به عن الظاهرية) .

سادسا : الرد على رسائل رأى ضرورة الرد عليها لإظهار ما تحويه من أخطاء مثل (رسالته فى فضل الأندلس التى رد فيها على زعم ابن الربيب القيروانى بأن أهل الأندلس لا يهتمون بتخليد مآثر بلدهم وعلمائهم ، ورسالته فى الرد على ابن النغريلة اليهودى ، والرد على الكندى الفيلسوف ...) .

---

(1) ابن سعيد ، المغرب ، 355/1 .

(2) أنظر : المحلى ، 21/1 ؛ طوق الحمامة ، ص21-23 ؛ رسائل ابن حزم ، 143،178/3 .

سابعا : ظهور ابن حزم بمظهر العبقرى المبدع صاحب المعرفة المتكاملة ، باعتباره مجددا للفكر الإسلامى خاصة عندما اتجه للتصنيف فى الطب والشعر وأجاد فيهما .

ثامنا : احتكاك ابن حزم بأهل الجهل مما كان له أكبر الأثر فى توقد طبعه وحمو فكره ، وإخراج تواليف عظيمة المنفعة ، وهو فى هذا الصدد يقول " ولولا استثارتهم ساكنى ، واقتداحهم كامنى ، ما انبعثت تلك التواليف "(1) .

تاسعا : كثرة الرحلات والتنقلات التى فتقت ذهنه نحو التاليف ، وفتحت له الموضوعات الجديدة فى التصنيف كما سبق .

عاشرا : ظروف العصر. والحياة الفكرية المزدهرة من جراء الخلاف الفقهى الذى بلغ مداه فى عصر. ابن حزم ، وقد كان لذلك أكبر الأثر فى الاتجاه للتأليف والتصنيف لحسم هذا الخلاف .

وبمطالعة قائمة الكتب الى أحصيناها لابن حزم ، والتى تبلغ مائة وتسعة وستين مصنفا (2) ، ومطالعة المطبوع منها والموجود بين أيدينا نخلص بالحقائق الآتية:-

أولا : تعدد المجالات المعرفية التى طرقها ابن حزم من تاريخ وفقه وحديث وعقائد وفلسفة ومنطق وتفسير وأدب ونحو وشعر وطب وسياسة ، وهذا يوضح أنه كان جامعة للعلوم العقلية والنقلية باستثناء الحساب الذى لم يخصه بمصنف فيما أحصيناه له من مؤلفات، ومع هذا التعدد فالمطالع لأى علم من العلوم التى طرقها يظن أنه لا يحسن غيره لمهارته فيه.

ثانيا : ابتكار ابن حزم لموضوعات جديدة فى المعرفة ، كفلسفة التاريخ، وكروية الأرض، ونظرية المعرفة .

ثالثا : الصدق هو أبرز سمة لهذه المصنفات فابن حزم كتبها دفاعا عن مبادئه التى يؤمن بها ، ولم يكتب تملقا لأحد أو بغية كسب مادى أو دنيوى ، بل إن كتبه لم يرض عنها معظم أهل الأندلس ، وتكالبوا عليها وأحرقوها لمخالفتها لمعارفهم ومناهجهم.

---

(1) أنظر : الأخلاق والسير فى مداواة النفوس ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط1 ، 1978م .

2 راجع ذلك بملاحق كتابنا ابن حزم الظاهرى وأثره فى المجتمع الأندلسى .

رابعا : أن هذه المصنفات تعتبر أكبر وثيقة مفصلة للحياة الثقافية والفكرية التى انتظمت العالم الإسلامى عامة والأندلس بخاصة خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة .

خامسا : هذه المؤلفات تنم عن استقلال فكرى فى ضوء القرآن والسنة وإجماع الصحابة.

سادسا : كثرة مطالعات ابن حزم وخاصة فى علوم الشريعة التى نال منها ما لم ينله أحد قبله بالأندلس ، ومن ثم فقد صنف فيها مصنفات كثيرة العدد شرعية المقصد تكون ثمانية وستين مصنفا من جملة ما أحصيناه أى أكثر من ثلثه تقريبا .

سابعا : أن هذه المؤلفات تدل على عقلية عجيبة فى الفهم الدقيق الشامل والاستنتاج والاستنباط ونقد آراء الآخرين ومجادلتهم ، وهى خاصية لا تفارقة ، فلا نكاد نجده خاملا الذهن مستسلما للنقل ، بل هو نشط على طول الخط قادر على الابتكار فى كل ما يكتب.

ثامنا : أن هذا الجهد الضخم من إنتاج ابن حزم كفيل بأن يلفت نظرنا إلى الحضارة العظيمة التى نشأت فى ظل دولة الإسلام ، وبلغت هذا المبلغ العظيم من التقدم ، والذى كان سببا فى خروج قمة من قمم الإسلام بل والإنسانية هى ابن حزم .

المبحث الخامس

ابن حزم وجهوده السياسة:

مرت علاقة ابن حزم بحكام الأندلس فى عصره بمرحلتين : **الأولى علاقته بخلفاء بنى أمية**، وكانت تتسم بالولاء لهم، بسبب أموية جده الأعلى يزيد مولى يزيد بن أبى سفيان؛ والتى انعكست على أسرة بن حزم بأسرها بمن فيهم ابن حزم، ويتضح ولاؤه الأموى فى أمرين :-

الأول: صلته بخلفاء وأمراء بنى أمية، ومجالسته لهم فى مجلس الحكم وغيره مثل هشام المؤيد بن الحكم، ومحمد المهدى 399هـ .400هـ/1009 .1010م، وعبدالرحمن المرتضى 408هـ/1017م، وعبدالرحمن المستظهر، وهشام الثالث المعتد بالله 418هـ .422هـ/1027 .1030م [1].

الثاني: عمله على انبعاث الدولة الأموية خلال عصر الفتنة بالدعوة لبعض رجالها مثل عبدالرحمن المرتضى، وعبدالرحمن المستظهر ، كما سبق وأن أشرنا.

لقد كان لهذا الولاء أثره فى اختيار عبدالرحمن المستظهر له كأحد وزرائه المقربين، وترشيح بنى أمية له كوزير فى خلافة هشام الثالث المعتد بالله [2]، إلى جانب مكانته السياسية فى عهده والتى تتضح من خلال نص رواه يشير إلى أنه فى سنة 422هـ/1030م قضى بالميراث لمحمد بن عبدالملك بن عبدالرحمن ودفعه إليه، على أثر وفاة محمد بن عبيدالله بن عبدالله بن مروان[3] فهذا النص يوضح أن ابن حزم كان متولياً ولاية القضاء، حيث قضى فى حكمه بدفع الميراث إلى محمد بن عبدالملك.

وهكذا فقد تمكن ابن حزم من نشر أفكاره أو بعضها من خلال توليه بعض المناصب التى أتاحت له الحكم فى القضايا التى ترفع إليه حسب فكره ومنهجه، فضلاً عن نجاحه فى

---

(1) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 78، 79، 173، 174.

(2) ياقوت، معجم الأدباء، 237/12.

(3) أنظر: جمهرة أنساب العرب، ص 5، 6 ؛ ومحمد بن عبدالملك ، ومحمد بن عبيد الله لم نعثر لهما على ترجمة .

إقناع المستظهر بالعمل ببعض آرائه السياسية الخاصة بالوزارة وغيرها كما سيتضح بالفصل الثالث من هذه الدراسة.

وأما ما ذهب إليه خير الدين الزركلى من أن ابن حزم كانت له ولأبيه رئاسة الوزارة(1) فليس بصحيح، لأن رئاسة الوزارة كانت للمنصور بن أبى عامر وولديه المظفهر عبدالملك وعبدالرحمن شنجول من بعده، وكان أحمد بن سعيد والده وزيراً للمنصور ولولديه إلى أن أعفى من منصبه سنة 399هـ/1009م، عندما تولى محمد المهدى، وظل كذلك بلا منصب حتى توفى سنة 402هـ/1012م، أضف إلى ذلك أن أحداً من القدامى والمحدثين ممن ترجموا لابن حزم لم يقل بمثل ما قال الزركلى مما يضعف من قوله.

وتجدر الإشارة إلى أن ابن حزم إذا كان قد نجح فى تحقيق بعض النتائج الإيجابية من خلال توليه بعض المناصب العليا فى الدولة، فإنه قد لقى معارضة من بعض أهل الأندلس، خاصة ابن حيان الذى قال فيه: "ومما زاد فى شنآنه تشيعه لأمراء بنى أمية ماضيهم وباقيهم بالمشرق والأندلس، واعتقاده لصحة إمامتهم، وانحرافه عمن سواهم من قريش حتى نسب إلى النصب لغيرهم "(2).وهذه المقولة تستحق وقفة متأنية لتحليلها فى الآتى :-

أولاً: أن ولاء ابن حزم وتشيعه لبنى أمية كان ولاء محبة وتقدير للدور الذى لعبوه فى نشر الإسلام بالأندلس وغيرها؛ فضلاً عن دورهم فى الحفاظ على وحدة الجماعة بالأندلس، إذ حينما سقطت خلافتهم تفككت الأندلس إلى إمارات متناحرة تحارب بعضها البعض. ولذا لم يكن ولاؤه لهم قائماً على التعصب؛ بل كان موالياً لأهل الحق منهم، ولم يغمض الطرف عن سيئات الدولة الأموية بالمشرق والأندلس، بل ندد بها فى كتاباته وليس أدل على ذلك من نقده لبنى أمية فى المشرق على لعنهم على بن أبى طالب وبنيه حاشا عمر بن عبدالعزيز ويزيد بن الوليد بن عبدالملك، فى حين أشاد ببنى العباس الذين لم يجيزوا ذلك(3). فضلاً عن نقده ليزيد بن معاوية لما فعله بالصحابة فى موقعة الحرة سنة 63هـ/683م، ووصفه لكل من يزيد

(1) أنظر: الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط5 ، 1980م، 4/254.

(2) نقلاً عن ابن بسام، الذخيرة، ق1 م1 ص 169.

(3) انظر: أسماء الخلفاء، ص 121.

عبدالملك، والحكم الربضى، وعبدالرحمن الناصر بالانهماك فى المعاصى واللذات والمجاهرة بذلك، ووصفه للمستكفى بالحماقة والبعد عن كل خلة خير والجمع لكل خلة سوء، ووصفه لهشام بن الحكم المستنصر، وهشام المعتد بالله بالضعف والتغلب عليهما(1).

ثانياً: أن ابن حزم لم يكن منحرفاً عمن سوى بنى أمية من قريش، يشهد على ذلك إيمانه بخلافة عبدالله بن الزبير وإقراره بها، واعتباره مروان بن الحكم خارجاً عليه(2) .

ثالثاً: أن كلمة النصب تعنى المعادى لأهل البيت، وابن حزم لم يكن كذلك بل كان من أكثر الناس توقيراً لهم ما دام الحق معهم، وليس أدل على ذلك من قطعه بأن على بن أبى طالب هو صاحب الحق فى حربه ضد معاوية وأن له أجرين، ومعاوية ومن معه مخطئون مأجورون أجراً واحداً(3). وأما معارضته لبنى حمود فلا يفهم منها معاداته لأهل البيت، وإنما كان سببها تشيع البعض منهم، والتفاف بعض المتشيعين حولهم، ونشرهم لأفكار معارضة لأهل السنة، على ما سيتضح بالفصل الرابع، هذا فضلاً عن الفساد الذى لحق بالأندلس على أيدى أتباعهم من البربر كما سبق بهذا الفصل، ومن ثم فإن نسبته إلى النصب فيما يبدو كانت من قبل المتشيعيين لبنى حمود وبعض فقهاء المالكية، الذين ضاقوا ذرعاً به لشدة حملته عليهم فعمدوا إلى هذا الوصف للتشهير به بين العامة والعلماء.

أما عن المرحلة الثانية فى علاقته بحكام عصره فكانت بعد سقوط الخلافة الأموية بالأندلس منذ سنة422هـ/1030م واتسمت بالعداء والمعارضة لملوك الطوائف، لما كانت عليه أفعالهم من مخالفة للشرع، مع تسميتهم بألقاب الخلافة كالمعتضد والمعتمد والمستعين والمأمون وهم ليسوا لها أهلاً؛ فضلاً عن تحالفهم مع ملوك أسبانيا النصرانية والتنازل لهم عن بعض المدن والقلاع فى مقابل مساندتهم ضد إخوانهم من الحكام المسلمين(4).

---

(1) نفسه، ص 112؛ وانظر نقط العروس، رسائل 2/73، 75، 76.

(2) انظر: أسماء الخلفاء، ص 113.

(3) انظر: الفصل، 3/86 .

(4) ابن حزم ، رسالة التلخيص ، رسائل 3/173، 176؛ نقط العروس ، رسائل 2/102؛ وانظر الطرطوشى، سراج الملوك ، ص 372؛ المراكشى، المعجب، ص 70.

لقد توجه ابن حزم بالنقد اللاذع لهم مظهراً مفاسدهم وضلالهم وحكم الإسلام فى أفعالهم لعلهم يرجعون عن غيهم، أو لعل الناس يهبوا فى وجههم لإجبارهم على ترك ما هم عليه من الفساد أو خلعهم واستبدال غيرهم؛ ومن ثم فقد أفتى أصحابه الذين راسلوه سنة 426هـ/1034م تقريباً، يسألونه عن حكم الإسلام فيما يفعله ملوك الطوائف وما حدث فى عصرهم من الفتن بأنهم محاربون لله ورسوله، وساعون فى الأرض بالفساد؛ لشنهم الغارات على أموال المسلمين، وضربهم المكوس والضرائب على رقاب المسلمين وتسليطهم اليهود على قوارع طرق المسلمين، لأخذ الضرائب والمكوس منهم. ثم حذر أصحابه من بعض الفقهاء الذين يبررون لملوك الطوائف أفعالهم واصفاً إياهم بأنهم من الفساق وأن قلوبهم كقلوب السباع[1] وفى رده على سؤال آخر جاءه من نفس الأصحاب يسألونه فيه عن وجه السلامة فى المطعم والملبس والمكسب فى ذلك العصر؛ فأجابهم بأن ملوك الطوائف ليس لهم هدف إلا صالحهم وتمشية أمورهم حتى لو كان ذلك فى عبادة الصلبان، ووصفهم بأنهم يستمدون النصارى ويمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم ليحملوهم أسارى إلى بلادهم، ويتركون لهم المدن والقلاع طوعاً فيخلوها من الإسلام ويعمروها بالنواقيس[2]. ومما سبق يمكن أن نخلص بالآتى:

أولاً: أن ابن حزم فى هذا النقد لم تكن تحدوه نزعة عاطفية أو شخصية، وإنما كانت تحدوه نزعة إسلامية لاحتواء الفتنة والعودة إلى عصر القوة والمنعة، ولم يكن مبالغاً أو متحاملاً، بل كان صادقاً فيما قاله، إذ أشار إلى وقائع وظروف تؤيدها الروايات والوثائق المعاصرة، وكان بحكم مكانته الاجتماعية والعلمية والدينية يدرك من أوضاع الأمور ما لا يدركه غيره[3].

وبنظرة سريعة على المصادر التاريخية يتضح أن معظم ملوك الطوائف، باستثناء محمد بن قاسم صاحب البونت، وأحمد بن رشيق صاحب ميورقة، كانوا على درجة كبيرة من الغلظة

(1) انظر: رسالة التلخيص، ص 173.
(2) نفسه، ص 176.
(3) محمد عبدالله عنان، أندلسيات، ص 56، 57.

والفظاظة والانسلاخ عن الشرع، فمجاهد العامرى كان خليعاً فاتكاً لا يساتر بلهو ولا لذة، ولا يستفيق من شراب وبطالة، وكان أبو مروان عبدالملك بن هذيل صاحب السهلة 437 . 497هـ/1045م .1103م شديد الجهل والفظاظة، حتى أنه سطا بوالدته وأمسك فرجها بيده، أما المعتضد بن عباد فكان غير مأمون على الدماء ولا حافظاً لحرمة الأولياء، فى حين كان إدريس بن يحيى بن على بن حمود 433هـ/ 439هـ/ 1042م .1047 لا يصحب ولا يقرب إلا كل ساقط نزل، ولا يحجب حرمة عنهم، وكل من طلب منهم حصناً أعطاه إياه[1] وغير ذلك كثير.

ثانياً: أن الأندلس تعرضت لانهيار اقتصادى فى عصر ملوك الطوائف، بسبب الضرائب والقبالات التى فرضت على كل ما يباع فى الأسواق، وعلى ما يملكه الناس من الغنم والبقر والنحل والدواب. ونتج عن ذلك ضعف مستوى معيشة الفرد؛ فى الوقت الذى كان يحيا فيه الحكام فى قصور شاهقة زينوها بالجوارى ومجالس الشراب، وأنفقوا الأموال فى الحلال والحرام[2].

ثالثاً: أن ابن حزم استطاع أن ينفذ إلى مجتمع الطوائف فيصفه وصفاً دقيقاً من شتى نواحيه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية، دون أن يعرض للتقدم العلمى الذى شهده عصرهم، ليجسد صورته القاتمة، أملاً فى الإصلاح والتخلص من المثالب، ومنعاً من إعجاب ملوك الطوائف بذكر جوانب العظمة فى حكمهم وإن كانت ضئيلة.

رابعاً: إن ابن حزم قد فطن إلى أن مكمن الداء فى العلماء الذين تخلوا عن دورهم فى إسداء النصيحة للحكام، وانضووا تحت لوائهم يبررون طغيانهم وفسادهم، ويأكلون على موائدهم واضعين فتاويهم فى خدمتهم تأييداً لهم باسم الشرع. وهو الأمر الذى أشار إليه ابن حيان هو الآخر[3] ولعل ذلك يرجع إلى تأثره بابن حزم لأسبقيته الزمنية فى التنديد بهذه

(1) قارن: ابن الآبار، الحلة، 29/2، 43؛ وابن عذارى، البيان المغرب، 156/3، 183.

(2) ابن حزم، رسالة التلخيص، ص 176؛ رسالة فى الرد على ابن النغريلة، ص 41.

(3) انظر: ابن بسام، الذخيرة، مجلد 1 قسم 3 ص 180، 181.

الظاهرة، أو أن ذلك مرجعه إلى فكرة توارد الخواطر حيث لديها المنبع الثقافى والفكرى، وتجمعهما أرض واحدة وواقع سياسى واجتماعى واقتصادى ودينى واحد.

لقد لقى تنديد ابن حزم صدى واسعاً بين المفكرين والشعراء، الذين استخدموا أسلوبه الثورى وبعضاً من كلماته التى استخدمها فى نقده وفتياه، فى شعرهم الموجه ضد ملوك الطوائف، ومنهم الشاعر المشهور بالسميسر- خلف بن فزج الألبيرى الذى دعا للخروج عليهم لما فعلوه بالإسلام وأهله، ووصفهم بشق عصا النبى (ص)، وأبو طالب عبدالجبار المعروف بالمتنبئ الذى انتقد أفعال ملوك الطوائف من شرب خمر وجور وتعطيل للجهاد ومظاهرة للنصارى عباد الصلبان، ويوسف بن محمد بن الجد الذى وصفهم بالخمول والدعة فى الوقت الذي لهم فيه أسرى بأيدى النصارى، ثم دعا عليهم بالموت واستئصال ذكرهم(1) ومن المفكرين والفقهاء أبو الوليد الباجى الذى ثارت ثائرته بما عاناه من ظروف عصره المتردية، وبما طالعه لخصمه ابن حزم من نقد وتنديد، فاحتسب نفسه وتنقل بين ملوك الطوائف فى محاولة للإصلاح وتقويم الوضع؛ لكنه لم يصادف أسماعاً واعية(2)؛ ومحمد بن الوليد الطرطوشى الذى جاهر بمخالفة ملوك الطوائف لسير الأنبياء والمرسلين والخلفاء الراشدين، فى جبايتهم للأموال وإنفاقهم لها فى وجوه اللهو والترف دون أن يعود خيرها على الرعية(3) بل إن تنديد ابن حزم وابن حيان بالعلماء الذين تخاذلوا عن دورهم فى إسداء النصائح للحكام، لقى صدى بين العامة الذين اختلقوا بعض الأمثال العامية التى تحذر من هذا النوع من الفقهاء كقولهم: "اتق الله العظيم ولا تشارك فى صفقه مع فقيه"(4). وهكذا فقد كان لابن حزم دور هام فى إثارة بعض الفقهاء والشعراء ليقفوا بجانبه ليظهروا دور

(1) انظر: الطاهر مكى، دراسات أندلسية، ص 65، 16؛ ليت سعود، ابن عبدالبر، ص 72.

(2) عبدالرحمن الحجى، التاريخ الأندلسى من الفتح حتى سقوط الخلافة، دار القلم، دمشق. بيروت، ط1، 1396هـ/ 1976م، ص 338. 344.

(3) انظر: سراج الملوك، ص 372.

(4) رجب محمد عبدالحليم، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية، دار الكتب الإسلامية والكتاب المصرى واللبنانى، (د.ت)، ص 281.

العلماء فى إسداء النصح للحكام ومجابهة سلبيات حكمهم. كما كان لآرائه وفتاويه صدى كبير داخل المجتمع الأندلسى أدى إلى بزوغ الحوار والمجادلة بين الفقهاء والمفكرين حولها، ومن ثم الترويج لها فى أوساط العامة.

خامساً: أن ابن حزم كان من أوائل العلماء الذين نبهوا إلى خطورة حركة الاسترداد La Reconquista على الإسلام بالأندلس من خلال الواقع التاريخى الذى عايشه، وذلك فى رسالته التلخيص سنة 426هـ/1034م. وليس أدل على ذلك من سيطرة فرديناند ملك قشتالة وليون على بعض المدن التابعة لبطليموس مثل بازو وليق سنة 449هـ/1057م، وقلمرية سنة 456هـ/1064م؛ وانتزاعه القلاع الواقعة جنوب نهر دويرة من ملك سرقسطة، وغزوه لأملاك المأمون صاحب طليطلة وإجبارة على دفع الجزية وإعلان تبعيتهله كما فعل من قبل ملكا بطليوس وسرقسطة، فضلاً عن إغارته على ماردة وإشبيلية وبربشتر التى قتل من أهلها ستة آلاف وسبى مائة آخرين سنة 456هـ/1064م، وشنتمرية بلد عبدالملك بن رزين وفرض الجزية على أهلها(1).

وبالرغم من ذلك فإن ملوك الطوائف لم يتحدوا لمواجهة هذا الغزو الكاسح . بل راحوا يبحثون تحت أقدام فرديناند يطلبون وده ومسالمته بتسليمالحصون وأداء الجزية حتى يحل بعيدا عنهم (2) وكرد فعل طبيعى لهذه الحال استخدم ابن حزم الفقه كسلاح يحارب به هذه الأوضاع المتردية ، فأفتى بفرضية الجهاد على كل مسلمى الأندلس ما دام لم يقم به من يدفع العدو ويغزوه فى عقر داره ، ويحمى ثغور المسلمين ، وأجاز الغزو مع كل فاسق من الأمراء

(1) انظر: ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص 68. 89؛ ابن بسام، الذخيرة، قسم 3 مجلد 1 ص 179. 190؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 184/2؛ دوزى، المسلمون فى الأندلس، 79/3؛ عبدالمجيد نعنعى، الإسلام فى طليطلة، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ت)، ص 151. 153.) ، وبطليوس مدينة عظيمة تقع على نهر أنه ، وهى إحدى كور مدينة ماردة أنظر ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص290وما ردة مدينة من بنيان العجم بينها وبين قرطبة خمسة أيام للراكب وعشرة للمشاة انظر: ابن الشباط، وصف الأندلس، ص 119، 120؛ وبربشتر قصبة بلدة برطانية بين لاردة وسرقسطة انظر: الحميرى، صفة جزيرة الأندلس، ص 39. 41.

(2) دوزى ، المسلمون فى الأندلس ، 80/3،69 .

وغيره ، ومع المتغلب والمحارب . بل أجاز أن يغزو الفرد وحده إن استطاع (1) ، وهذه النازلة توضح مدى فساد ملوك الطوائف وضعفهم عن الدفاع عن دينهم ، فى الوقت الذى نشطت فيه حركة الاسترداد المسيحى نشاطا ملحوظا ، ومن ثم فابن حزم كان يتلمس أى وسيلة لتحقيق الجهاد حتى ولو كان الفرد وحده . أو مع إمام فاسق . وبذلك يتضح تجديده وتطويع الفقه لظروف مجتمعه ، إذ لم يسبقه إلى ذلك أحد من الفقهاء .

وإلى جانب الفتوى السابقة أفتى ابن حزم بضرورة انتزاع ما فى أيدى تجار أهل الحرب (أعداء المسلمين) من الأسرى المسلمين وإمائهم وعبيدهم وأموالهم بلا عوض . أحبوا ذلك أم كرهوا ، وألزم مسلمى الأندلس جميعا أن يفدوا أسراهم من نصارى أسبانيا إن لم يكن لهم مال يفى لفدائهم ، ويرجع ذلك إلى سببين

الأول : كثرة الاسرى المسلمين لدى الأسبان نتيجة لغزواتهم المتكررة على الأندلس

الثانى : إجازة المالكية تملك تجار أهل الحرب لأسرى المسلمين دون أن يستردوهم منهم(2).

ومن جهود ابن حزم السياسية لمجابهة حركة الاسترداد . معارضته لما ساد عصره من معاهدات بين ملوك الطوائف وملوك أسبانيا النصرانية مثل ما وقع سنة 436هـ /1044م بين المأمون صاحب طليطلة وفرديناند ملك قشتالة ضد المستعين صاحب سرقسطة نظير أن يؤدى له الجزية ويقر له بالطاعة ، وما حدث من استعانة عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن المنصور العامرى صاحب بلنسية ببعض سريات النصارى فى حربه ضد مجاهد العامرى سنة 433هـ/1041م ، وما وقع المعتضد بن عباد وملك قشتالة السابق سنة 456هـ/1063م على أن يؤدى الأول الجزية للثانى مقابل أن يبقى على مملكته وذلك بعد موافقة فقهاء أشبيلية على ذلك عندما استفتاهم المعتضد (3) .

---

(1) أنظر : المحلى ، 5/352،340 .

(2) ابن حزم ، المحلى ، 5/360-364 .

(3) دوزى ، ملوك الطوائف ، ترجمة كامل الكيلانى ، مكتبة عيسى البابى الحلبى ، القاهرة ، 1351هـ/1933م ، ص171 ؛ وانظر Prieto y vives, Antonio, Los Reyes de taifas estudio historica numismatica Los musulmanes espanoles en el siglo V de la hegira , Madrid , 1926 , P.53. ؛ محمد عبدالله عنان ، دول الطوائف ، ص212،213 ؛ عبدالنبى على عبدالله ، دولة بنى هود فى سرقسطة ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب جامعة الإسكندرية ، 1992م ، ص304.

لقد انتقد ابن حزم هذا وأفتى بعدم جواز اسعانة المسلمين بأهل الحرب حتى ولو كان المستعان عليه من أهل البغى خارجا على الحاكم [1] . كما عارض العهود التى عقدها ملوك الطوائف مع نصارى الشمال ، إلا إذا كان النصارى هم الذين يؤدون الجزية للمسلمين ، وخص هذا الموضوع فى فصل خاص من كتابه (الإحكام فى أصول الأحكام) يقع فى اثنتين وأربعين صفحة مما يوحى بخطورة هذا الموضوع خاصة بعد أن أجاز فقهاء عصره هذه المعاهدات [2] والمطالع لنوازل ابن حزم يرى مدى اهتمامه بأوضاع مجتمعه وتطويعه للفقه كوسيلة لمواجهة حركة الاسترداد . فبالرغم من تعطيل الجهاد الإسلامى فى الأندلس باستثناء حملات مجاهد العامرى على سردانية التى حصل منها على الغنائم الكثيرة فضلا عن احتلاله لأجزاء كثيرة منها [3] . فقد اشترط ابن حزم – استنادا على القرآن والسنة – تقسيم خمس الغنيمة على خمسة أسهم سهم يضعه الإمام فيما فيه صلاح وبر المسلمين ، وثانى لبنى هاشم والمطلب وبنى عبد مناف ، وثالث ليتامى المسلمين ، ورابع لمساكين المسلمين وخامس لابن سبيل المسلمين [4] والجديد فى هذا التقسيم هو اشتراط ابن حزم الإسلام لكل من اليتامى والمساكين وابن السبيل . متأثرا فى ذلك بظروف عصره إذ أن التباين الاقتصادى بين المسلمين وأهل الذمة كان واضحا فى الوقت الذى كان يحيى فيه الذميون حياة مرفهة ويسيطرون على الوظائف العليا فى الدولة كان المسلمون مطالبين بسداد الكثير من الضرائب غير الشرعية لملوك الطوائف ليعيشوا حياة لاهية ويدفعوا الجزية لملوك أسبانيا مثل فرديناند ملك قشتالة ورامير الأول ملك أرجون. [5] .

---

(1) أنظر : المحلى ، 11/354-356 مسألة 2162.

(2) أنظر : مجلد 2 ص5-47.

(3) ابن عذارى ، البيان المغرب ، 3/155 ؛ وانظر عنان ، دول الطوائف ، ص186-189.

(4) أنظر : المحلى ، 5/388 ، 389 ، والغنيمة هى المال المأخوذ من الكفار قهرا بالقتال ويشتمل على الأسرى من الرجال والسبى من النساء والأطفال والأرض والأموال . أنظر الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص166،161-180.

(5) ابن حزم ، رسالة التلخيص ، رسائل 3/176 ؛ وانظر Asin placios , Inexplorado del cordobes ibn hazm alandalus, V.2 , P.37. ؛ وانظر غرسيه غومث ، مع شعراء الأندلس ، ترجمة الطاهر مكى ، دار المعارف ، القاهرة ، ط5 ، 1412هـ/1992م ، ص115 الأبيات 27-36.

وتجدر الإشارة إلى أنه بالرغم من اعتماد ابن حزم فى تقسيمه على النصوص الشرعية ، فإنه قد عرض رأيا جديدا على معظم الأندلسيين إذ إن الكثيرين منهم كانوا يعتمدون على مذهب المالكية الذى ينص على جعل الخمس كله فى بيت المال ، ويعطى منه أقرباء الرسول على ما يراه الحاكم وليس فى ذلك حد محدود فى حين أن البعض كان يعمل بقول الحنفية الذى ينص على تقسيم الخمس إلى ثلاثة اسهم للفقراء والمساكين وابن السبيل (1) .

وبالرغم من جهود ابن حزم السابقة التى كانت ترمى إلى رفع حركة الجهاد لمجابهة حركة الاسترداد ، ونبذ المعاهدات بين الجانبين: الإسلامي والنصرانى القائمة على خضوع المسلمين ؛ فإنه فشل خلال حياته فى تحقيق ما كان يصبو إليه من توحيد الجبهة الإسلامية بالأندلس ضد نصارى أسبانيا . لكنه لم يعدم وجود أثر فكرى لآرائه بين مجموعة من الشعراء الذين انبروا ينددون بالغارات النصرانية على الأندلس ، وبالمعاهدات التى وقعت بين ملوك الطوائف وملوك أسبانيا النصرانية ، ويدعون الناس إلى الخروج على حكام الأندلس (2) . فضلا عن جماعة من الفقهاء فى مقدمتهم يوسف ابن عبدالبر الذى وصف ملوك الطوائف بأنهم خدم للنصارى ، وابنه عبدالله الذى تتضح النزعة الحزمية فى رسالته التى حث فيها أهل الأندلس على الجهاد موضحا لهم أن سبب هذا الاعتداء الصارخ هو كثرة الذنوب والإفراط فيها . فضلاعن الفرقة والتنازع بين ملوك الطوائف (3) ، ولا شك أن مرجع هذه النزعة هى أواصر الصداقة التى تجمع بين والده وابن حزم . فضلا عن الظروف والأوضاع التى كانت صاحبة تأثير قوى على كل من انبرى بعد ابن حزم يندد بمثل ما ندد به .

والواقع أن الأثر الفكرى لابن حزم لم يقف عند حد عصره فحسب بل امتد إلى عصر المرابطين ، حيث تأثر به بعض الفقهاء فى استخدام الفقه كوسيلة لإحياء الجهاد ومجابهة حركة الاسترداد ، وهى المسألة التى أصلها ابن حزم ودعا إليها كما سبق . ومن هؤلاء ابن رشد

---

(1) ابن حزم ، المحلى ، 5/ 392.

(2) عن ذلك بالتفصيل أنظر : شعر هؤلاء الشعراء بملاحق كتابنا ابن حزم الظاهرى وأثره فى المجتمع الأندلسى.

(3) عن نص هذه الرسالة أنظر ابن بسام ، الذخيرة ، قسم 3 مجلد 1 ص 173 - 177 .

الجد الذى سئل فى إحدى النوازل التى رفعت إليه عن أيهما أفضل فى تلك الايام فأفتى بأفضلية الجهاد وأسقط فريضة الحج عن أهل زمانه لتعذر الوصول إلى الأماكن المقدسة مع الأمن على النفس والمال (1) ، بيد أن ما كان يصبو إليه ابن حزم من تجميع الأندلس وإحياء حركة الجهاد الإسلامي لاسترداد ما فقد من ديار المسلمين نراه يتحقق فى عهد الموحدين . فقد كان يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن شغوفا بالجهاد يظهر ذلك من الناحية النظرية فى كتابه – الجهاد – الذى يرغب فيه الناس لتحقيق هذه الفريضة بضم مجموعة كبيرة من الأحاديث الواردة فى فضله والحث عليه وبيان محاسنه ، ومن الناحية العملية فى عنايته بحشد الجيوش العظيمة وتمويلها وقيادتها لاسترداد ما فقد من أراضى على أيدى النصارى ففى سنة 578هـ/1182م غزا حصن شنتقيلة فى المنطقة بين إشبيلية وقرطبة . كما غزا مدينة طلبيرة أولى مدن الحدود القشتالية ، وهزم القشتاليين واستولى على عتادهم ودوابهم ، وفى سنة 580هـ/1184م غزا مدينة شنترين ونجح فى اقتحامها . وقد تابع المنصور والده فى ذلك فاسترد فى سنة 587هـ/1191م قاعدة قصر الفتح الواقعة جنوبى شرقى أشبونة ، وحصن قلماله ، وحصن المعدن ، ومدينة شلب (2) ، وبعد انتصاره على القشتاليين فى معركة الأرك سنة 591هـ/1194م أرسل جنوده إلى قلعة رباح فاستولت على عدة حصون واقتحمت القلعة نفسها بعد قتال عنيف ، ثم صار المنصور بعد ذلك مخترقا أراضى قشتالة يثخن فيها قتلا وأسرا وسبيا (3) ، وفى سنة 600هـ/1203م جهز محمد الناصر حملة لغزو جزر البليار نجحت فى فتح ميورقة ، وفى سنة 608هـ/1211م تمكن من استرداد قلعة شلبطرة وحصن

(1) نقلا عن الونشريسى ، المعيار ، 432/1 ، لم ينظر إلى إحياء حركة الجهاد الإسلامى فى عهد المرابطين على أنها تأثر بابن حزم لأنهم كانوا مالكى المذهب ، ويرفضون كل ما من شأنه مخالف للمالكية ، وإنما مرجع ذلك إلى الظروف السياسية وتدين البعض من حكام المرابطين . أنظر محمود على مكى ، وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية ، مدريد ، 1959م – 1960م ، مجلد 7،8 ص127-129.

(2) المراكشى ، المعجب ، ص256-259، 280 ؛ وانظر عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ص103-105، 119-123، 186، 134-188.

(3) عنان ، مرجع سابق ، ص214-221.

اللج [1]. وهكذا فقد تضافر فقه الجهاد الظاهرى الدافع لمقاومة حركة الاسترداد مع الظروف السياسية بالأندلس ودفع حكام الدولة الموحدية إلى إحياء حركة الجهاد الإسلامى كما سبق.

وتجدر الإشارة إلى أن ابن حزم رغم شدته على ملوك الطوائف فى فتاواه لا سيما فى العقد الأخير من حياته فإنه كان على صلة ببعضهم بل قرظ بعضهم ووصفه بالفضل ، ووجد ملاذا آمنا عند بعضهم كصاحب قلعة البونت ، والذى طلب منه أن يصنف له رسالة فى فضل الأندلس ، ويرد على من انتقصها من أهل أفريقية ، كما أنه كان على صداقة وصلة قوية بصاحبه أحمد بن رشيق حاكم ميورقة ، والذى عمل ابن حزم كوزير فى بلاطه أو مستشار من مستشاريه ، كذلك لا يمكننا أن نغفل الصلة التى ربطت بين ابن حزم وبين ابن صمادح صاحب المرية . حيث طلب الأخير من ابن حزم أن يصنف له رسالة فى الوعد والوعيد وبيان الحق فى ذلك من السنن والقرآن. فكتبها ابن حزم للأمير أبى الأحوص معن بن محمد التجيبى بين سنتى(433هـ/1041م و443هـ/1051م).

(1) المراكشى ، المعجب ، ص314،315 ؛ وانظر ابن خلدون ، العبر ، 6/249،247،246 .

المبحث السادس
إحراق كتبه ووفاته

وترتبط بمصنفات ابن حزم حادثة خطيرة طالما تكررت بالأندلس كلما ضاق أهلها بأحد ممن يخالفهم من العلماء ، وهى إحراق كتبه علانية بإشبيلية ، بيد أنها لم تفقد من جراء ذلك ، فقد كان له جماعة من تلاميذه النجباء الذين قدروا فكره وحافظوا على كتبه التى كانوا يمتلكونها بنسخها ونشرها بين الناس ، ولذا فعندما أحصاها ابن مرزوق اليحصبى وهو من المتأخرين وجدها ثمانين ألف ورقة ، وهو نفس إحصاء أبو رافع الفضل فى القرن الخامس الهجرى /الحادى عشر الميلادى ، ويمكن أن نرجع أسباب هذه الحادثة فى الآتى :-

أولا : ثقة ابن حزم بنفسه عند منازلة كبار فقهاء المالكية ، وعدم تردده فى تسفيه آرائهم طالما خالفت الحق .

ثانيا : تنديده بولاية خلف الحصرى للخلافة بإشبيلية ، ومبايعته على أنه هشام المؤيد سنة 425هـ/1033م فى عهد محمد بن إسماعيل القاضى والد المعتضد بن عباد [1] ، فعندما حل بإشبيلية أوقع به المعتضد أشد إيقاع لما صدر منه من إثارة الناس حول محمد بن إسماعيل رأس الاسرة العبادية .

ثالثا : معارضة فقهاء المالكية له وسعيهم لدى السلطان للإيقاع به وإثارة العامة ضده [2] ، ومن ثم التقت أغراضهم مع ما كان يرمى إليه المعتضد ، فكانت واقعة إحراق كتبه على مسمع ومرأى من الناس .

رابعا : نزعة ابن حزم الأموية ودعوته لإعادة حكم الأمويين فى الوقت الذى قطع فيه معظم ملوك الطوائف كل صلة بالأموية الأندلسية ، وحاول كل واحد منهم أن يحقق استقلالا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ، خاصة المعتضد الذى ما وافق على خدعة أبيه بعد وفاته بمبايعة (خلف الحصرى) بإشبيلية على أنه هشام المؤيد إلا ليصبغ الشرعية على

---

(1) أنظر : نقط العروس ، رسائل 97/2 .

(2) ابن حزم ، رسالتان له أجاب فيهما عن رسالتين ، رسائل 115،116/3 ؛ وانظر ابن سعيد ، المغرب ، 405/1

محاولته الاستقلالية ، وليرضى أصحاب النزعات الأموية بإمارته . فلما تحقق له ذلك أعلن وفاة الخليفة المزعوم .

خامسا : أن ابن حزم لم يكن ينظر إلى أمراء عصره ومنهم المعتضد نظرة إكبار فهو وزير ابن وزير ، وما كان له أن ينظر إليهم أكثر من نظرته إلى من دونه أو من ليسوا أكبر منه ، وهم يأنفون من ذلك الأمر الذى دفع المعتضد إلى تدبير مؤامرة تجعله ذليلا لا يشمخ براسه عليه ولا على غيره هى إحراق كتبه .

وبالرغم من هذه المؤامرة التى ألمت بابن حزم فلم يتحقق للمعتضد ما كان يصبو إليه من كسر كبريائه وإذلاله ، بل ظل الرجل يشمخ بمكانته وعلمه وعقله هنا وهناك دون ضعف ولا ذلة ، لكنه آثر السلامة وغادر إشبيلية إلى قريته منت ليشم التى كان يمتلكها ويتردد عليها ، وظل بها يمارس التصنيف والتدريس حتى وافته المنية عشية يوم الأحد 28 شعبان 456هـ/15يوليو1063م [1] ، وليس كما ذهب البعض من أن وفاته كانت سنة 457هـ/1064م ، ولا 455هـ/1063م [2] ، لأن أبا رافع ولد ابن حزم هو الذى كتب التاريخ الذى ذكرناه ، وهو الأعلم من أى أحد بتاريخ وفاة والده ، فضلا عن أن معظم من ترجم لابن حزم ذكروا سنة وفاته كما ذكرها ابنه الفضل [3].

كان ابن حزم قد رثى نفسه قبل وفاته بقليل فى أبيات شعرية كأنه أحس بدنو أجله [4] قائلا :

---

(1) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، 211/18 ؛ وانظر Asin Placios , Aben hazam , T.1 , P. 240, 241.

(2) ياقوت ، معجم الأدباء ، 240/12 ؛ وانظر غرسيه غومث ، الشعر الأندلسى ، ترجمة حسين مؤنس ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط1 ، 1952م ، ص16 .

(3) صاعد ، طبقات الأمم ، ص99 ؛ وانظر ابن بشكوال ، الصلة ، 605/2 ترجمة 898 ؛ ابن سعيد ، المغرب ، 355/1 ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، 569/6 ؛ Roger Arnoldez Grammaire E theologie chez ibn hazm de cordove essal sur Las trueture Et les conditions de pensee musulmane, liprairie philosophique, Paris, 1956 ,P.19 .

(4) أنظر : ديوان ابن حزم ، ص96 مقطوعة رقم 2 .

كأنك بالـزوار لى قد تبادروا وقـيل لهم أودى على بـن أحمـد
فيـارب محزون هناك وضاحك وكـم أدمـع تزرى وخـد محدد
عفـا الله عنى يوم أرحل ظاعنا عن الأهل محمولا إلى ضيق ملحد
وأترك ما قـد كنت مغتبطا به وألقى الذى آنست منه بمرصـد
فواراحتى إن كان زادى مقدما ويانصـبى إن كنـت لم أتـزود

ويمكـن تخيـل جنازتـه وقـد حضرـها تلاميـذه بقرطبـة وأبنـاؤه وأصـحابه مـن أمثـال ابـن عبدالبر ، وابن حيان ، وغيرهما ممن تربطه بهم قرابة أو نسب .

وهكذا فقد ذهب ابن حزم إلى مثواه الأخير سائلا الله أن يعفو عنه يوم ظعنه إلى ضيق الملحد ، بعد حياة قضاها فى كفاح ونضال ضد الجمود والتقليد ، قاسى خلالها من المرارة والاضطهاد والتشريد ، ما أنضب معين الرقة واللين لديه.